الأدب العباسي

عصر نفوذ الخلفاء العباسيين

كيف قامت الدولة العباسية ؟

لا يذكر التاريخ الاسلامى فى ثنايا وأطوائه ، وحوادثه وأحداثه ، أمر
غرب ، ولا حدثا أعجب ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك بنى أمية
وعرشهم الذى رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل والسخاء ، وقو
سلطان وطول البطش والعنف والطغيان .

وكان قيام ملك بنى العباس نتيجة لمقدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة مثيرة
وخاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع مقاليد الخلا
الاسلامية فى أيدى العباسيين :

— ١ —

وأول هذه الاسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول ، صلوات الله وسلا
عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإنزال الهوان بهم فى كل مكان ، مما يصو
بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسى المشهور ، فى إحدى قصائده حيث يقول :

ملامك فى أهل النبى فانهم ... أحباء ما عاشوا وأهل تقاتى
لهم كل حين نومة بمضاجع ... لهم فى نواحى الأرض مختلفات
أرى فيئهم [١] فى غيرهم متقسما ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله تخف جسومهم ... وآل زياد حفل القصرات [٢]
بنات زياد فى القصور مصونة ... وآل رسول الله فى الفلوات
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم ... أكفا عن الأوتار منقبضات

ولقد شمل هذا الاضطهاد : البيت العلوى ، من ينسبون إلى الامام على ابن أبى طالب ، ابن عم الرسول الكريم ، والبيت العباسى ، من ينسبون إلى العباس بن عبد المطلب ، عم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .

ومصرع الحسين بن على فى كربلاء ، ومصارع أهله وأسرته ، ونفى بعضهم من الحجاز ، شاهد على ماتقول .

ولما ازداد عنف الأمويين ، واستبدادهم بالعلويين ؛ هب سادتهم يؤلفون الجماعات ، ويكونون العصابات ، ويعلنون الحروب والثورات على خلفاء بنى أمية . وكان الشيعة يرشحون لخلافة المسلمين من آل البيت سيدا بعد سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ؛ ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية ، ثم لابنه أبى هاشم العلوى بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقيما فى الحميمة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث أقام على ابن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسى الطريق . ويروى بعض المؤرخين أن أبا هاشم — الذى لم يكن له أبناء يرثون دعوته — رشح لإمامة الشيعة بعده ابن عمه عليا هذا ، وأدلى بنصيبه من الخلافة إليه وإلى أولاده ، وأوصى أولياءه باتباعه ويروى آخرون أنه تنازل لمحمد بن على .

---

(١) الفىء : الخراج والغنيمة . صفرات : خاليات

(٢) حفل القصرات : ضخام الاعناق ، كناية عن سمنهم .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى بيت بنى العباس ، فصارت الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، ونهضوا هم بالمسئولية كابر عن كابر ، وماجد بعد ماجد : على العباسى ، ثم ابنه محمد بن على ، الذى ذاعت على يده الدعوة لآل البيت فى كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية فى الكوفة وخراسان ، وكان محمد يبصر دعاته بأساليب الدعوة ، والبلاد التى يبثون فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم فى خراسان ، حيث « المشرق ومطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » ، وحيث ضعف سلطان بنى أمية ، وسلامة القلوب والصدور ، والحب لآل النبى وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن على إلى ابنه إبراهيم ، الذى حبسه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، حتى مات فى الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه أبو العباس

ولقد نجحت دعوة الدعاة نجاحا باهرا ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، فى العراق وفارس ، وأخذوا ينازلون الأمويين فى هذه البلاد ، فطردوا ولاتهم فى خراسان ، وهزموا جيوشهم فى فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق فى قبضة المسودة ، أتباع بنى العباس ، وشيعة آل البيت .

وفى ربيع الأول من عام ١٣١ هـ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بدء قيام الدولة العباسية ، وانتهاء دولة بنى أمية . وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح » ؛ وبهذا لقب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لمنازلة بنى أمية وجنودهم فى الجزيرة والشام . وفى معركة « نهر الزاب » ، قضى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوما مدحورا ، حيث تبعه صالح بن على عم الخليفة العباسى ، وقبض عليه ، وقتله فى آخر العام نفسه .

— ٢ —

وثانى تلك الأسباب التى ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للموالى عامة .

فقد كانت دولهم - كما علمنا - عربية أعرابية خالصة ، إذ كانوا يعتزون بالعرب اعتزازا كبيرا ، ويحتقرون الموالى احتقارا شديدا ، حتى كانوا لا يستعينون فى دولهم بأحد منهم ، وكان الحجاج واليهم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربى (١) ، وكان لا يلى الخلافة أحد من أبناء المولدين ، الذين ولدوا من من أمهات أعجميات (٢) ، وكان العربى فى جيش الخلافة فى فرق الفرسان ، والموالى فى عداد المشاة ، ومنع الأمويون زواج الموالى بالعربيات ، بل أبطلوا ما وقع من أمثال ذلك الزواج ، يروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى أن رجلا من الموالى خطب عربية من بنى سليم وتزوجها ، فذهب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وشكا إلى واليها ابراهيم بن هشام ، فأرسل ابراهيم إلى هذا المولى ، ففرق بينه وبين زوجه ، وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير فى ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد
وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الحواجب والخدود (٣)

ويقول الأصفهانى : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربى من السوق ، ومعه شىء ، فرأى مولى ، دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه . وصدق الجاحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عربية أعرابية (٤) .

من أجل ذلك كله حقد الموالى على دولة بنى أمية ، وأضمروا لها الكراهة والحقد والبغضاء . . وكان العنصر الفارسى أكثر الموالى حقدا ، وأشدهم موجدة ، وأعظمهم غيظا وحنقا على سلطان الأمويين الجائر ، وحكمهم الباطش ، وطغيانهم الشديد . لأن له تاريخا قديما ، وملكا بائدا ، وحضارة موروثة ، وكان الفرس

---

(١) ٢٠٧ / ١ العقد الفريد .
(٢) ٢٩٧ / ٣ المرجع نفسه .
(٣) الاغانى ١٥٠ : ٤ .
(٤) ٢٠٦ : ٣ البيان والتبيين

يحلمون باستعادة دولتهم ، واستقلال أمتهم ، وإحياء حضارتهم . . ولهذا كان لهم الفضل الأكبر ، واليد الطولى فى قيام ملك بنى العباس ؛ فالثورة على الأمويين قامت فى بلادهم ، وكانوا هم جندها والمحاربين فى سبيلها ، وكان منهم القواد الكبار ، الذين حطموا خلافة بنى أمية وعرشهم ، كأبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى .

ولهذا كله كان للفارسيين فى الدولة العباسية نفوذ كبير ، ومقام خطير ، مما يصوره لنا قول داود بن على عم السفاح فى خطبة له : « يأهل الكوفة : إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ، فأحيابهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا » ؛ وقول أبى جعفر المنصور : « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا » . وأوصى بهم قبل وفاته ابنه المهدى فقال : « أوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودمائهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم : أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » .

— ٣ —

وثالث الأسباب فى قيام الدولة العباسية ، والقضاء على الخلافة الأموية : هذه العصبيات القبلية ، التى أشعل نارها خلفاء بنى أمية ، مما يفسره كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية فى هذا العصر . . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى أول هذا الكتاب . وقلنا إن هذه العصبيات ظلت ملازمة لعهد الأمويين . . وأخيرا وجدنا مروان بن محمد يتعصب لقومه نزار على اليمن ، فانحرفت اليمن عنه إلى الدعوة العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يؤججون الخلاف بين القبائل العربية ، ليشغلوا الناس عن سياستهم ، ويصرفوهم عن تتبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراساني بأمر قيادة جيوش العباسيين في خراسان ، لم يجد صعوبة ، في تأجيج نيران الخصومات بين القبائل العربية وزعمائها ، وبذلك أمكنه أن يتغلب عليهم جميعا ، وأن يجعلهم يفنون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم يستطع زعماء العرب في هذه البلاد من أمثال نصر بن سيار زعيم المضريين ، وجديع بن شبيب الكرماني سيد اليمانية : ، وشيبان بن سلمة الحروري رئيس ربيعة ، لم يستطع هؤلاء جميعا الوقوف أمام الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المدمر على العراق والشام

وكان كل عربي شديد التعصب على أبناء القبائل العربية الأخرى . ما تصوره لك هذه الأبيات ، يقول رجل من بني أسد بن خزيمة يمدح يحيى بن حيان :

ألا جعل الله اليمانين كلهم ... فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان
ولولا عريق فيه من عصبية ... لقلت : وألفا من معد بن عدنان
ولكن نفسي لم تطب بعشيرتي ... وطابت له نفسي بأبناء قحطان

* * *

فلا عجب إذن أن تنقرض دولة بني أمية ، وينبثق من الأفق نور جديد ، يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفتية الناشئة ، التي بادرت بقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم في كل مكان . وكان الشعراء يؤججون نار الانتقام في نفوس العباسيين . دخل سديف الشاعر مولى بني العباس على السفاح ، فألقى بمجلسه سليمان بن هشام هادئا مطمئنا ، لتأمين أبي العباس إياه ، فأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانه . ودخل شبل عبد الله مولى بني هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بني أمية نحو المائة ، فأنشده

لا يغرنك ما ترى من رجال إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانته ودخل شبل ابن عبد الله مولى بنى هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بنى أمية نحو المائة ، فأنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسى
ولقد ساءنى وساء قبيلى قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها اللـ ـه بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعا فقتلوا . وبهذا البطش والتنكيل ، خلص الملك لبنى العباس ، وقضى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلفتها الكوفة ثم بغداد .. وهكذا تدول الدول ، وتتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ، ويذل من يشاء ...

ماذا نعنى بعصر نفوذ الخلفاء

— ١ —

يبدأ العصر العباسى منذ أعلن أبو العباس السفاح فى الكوفة قيام الخلافة العباسية

ولقد أخذ أبو العباس فى توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها ؛ وتتابع الخلفاء من بعده على نهجه ، من النهوض بها ، والقضاء على خصومها ،

والعمل على بناء مجدها ، ورفع منارة العلم والأدب والحضارة فى جميع نواحيها .. كل ذلك والدولة فى قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ؛ والسلطان بأيديهم ، والأمر لهم ويهم ، لارأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبى فى شئونهم ، لأن العناصر الأجنبيـة الدخيلة كانت لاتزال تأتمر بأمرهم ، وتخضع لمشيئتهم ، ولا تتطاول إلى مقام توجيههم ، فضلا عن مناوأتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ؛ بل كان أقل غرور أو تطاول أو تدخل فى شئون الملك يبـدو من أحد منهم خليقاً بأن يثير عليـه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما فعل السفاح بأبى سلمة الخلال وزيره الفارسى ، والمنصور بأبى مسـلم الخراسانى مع أنه يعد أكبر مؤسس لخلافة العباسيين ، وكما صنع الرشـــيد بالبرامكة ، والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالأفشين

هكذا كان سلطان الخلفـاء بالرغم من تقريبهم للموالى وقيام سياستهم على الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من مجهود فى سبيل تأسيس الدولة . وعلى هذا النحو من النفوذ والقوة ، كانت الخلافة فى عصر السفاح فالمنصور فالمهدى فالهادى فالرشيد فالأمـين فالمأمون فالمعتصم فالواثق فالمتوكل الذى ولى الخـــلافة عام ٢٣٢ هـ ، والذى كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة

وفى عصر المتوكل أخذ الحزب التركى العسكرى يتآمر على الخلافة والخليفة ، ويحاول التدخل فى شئون الدولة ، وانتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام ٢٤٧ هـ . وبذلك ينتهى عصر نفوذ الخلفاء[1] ، ويبدأ عصر آخر جديد يسود فيه نفوذ الأتراك وتشتد هيمنتهم على الخلافة

---

(١) يختلف مؤرخو الأدب فى نهاية هذا العصر فالبعض يجعل نهايته من بدء خلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ (ضحى الاسلام ج ١ ص ب ، تاريخ أدب اللغـة العربية لجورجى زيدان ٢/١٧ ، وتاريخ الأدب للزيات ص ٢١١) ، والبعض الآخر يجعل نهايته مصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ ، وهو ماسرنا عليه فى هذه الدراسة

فنحن إذاً إنما نريد بعصر نفوذ الخلفاء العباسيين المدة ما بين عامى ١٣٢ و ٢٤٧ هـ . . وهى المدة التى كان النفوذ فيها خالصاً للخلفاء العباسيين ، لم يشاركهم فى الحكم ، وشئون الدولة ، عناصر أخرى من التى سنعرض لها فيما بعد

— ٢ —

وهذا العصر هو أزهى عصور الاسلام ، وصفحاته المشرقة أنصع الصفحات فى التاريخ السياسى والأدبى للعرب .

ولا بدع فقد بلغت فيه الدولة الاسلامية المظفرة منتهى ما تطمح إليه من المجد والسلطان ، وغاية ما تصبو له من حضارة ومدنية ، وثقافة وعرفان .

كانت مملكة العباسيين فيه تمتد من شواطىء المحيط الأطلسى إلى حدود الهند والصين ، وكان نفوذ الخلفاء العباسيين بالغاً غايته فى العالم المعروف آنذاك يذكر إسمهم فى بيزنطه أو روما أو الصين ، فترتعد الفرائص ، وتخفق القلوب وتنحنى الهامات ، وتسير جيوشهم المنصورة فى كل مكان ، وترتفع رايتهم فى كل أفق ، حيث يستظل بظلها الملايين العديدة من سكان الدنيا ، ويدينون لها بالولاء والوفاء .. وكان لخلفاء بنى العباس ولاة فى كل إقليم ، وحكام فى كل قطر ، ينشرون الأمن والعدل والنور والعلم ، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ـ وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء ، ويتعلمها الناس من كل لون وجنس ، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت ، وتستقر حيثما استقرت.

وفى هذا العصر نبغت الفنون الاسلامية ، وازدهرت الآداب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات فى كل مكان ، تثقف العقول ، وتهذب النفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس فى حلقاتها المسلمون على اختلاف عناصرهم ، وألوانهم وبيئاتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويبنون لأمتهم مكانها الرفيع فى عالم الفكر الانسانى ، ويؤثلون للحضارة مجدها الزاهى ، ويرفعون للفكر منارته السامقة .

— ٣ —

ويمتاز عصر نفوذ الخلفاء بغلبة العناصر الفارسية ، وبتجمع الثقافات وظهورها فى الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبحرية الفكر ونفوذ المعتزلة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول فى العلوم والآداب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للعلم والأدب .

كما يمتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثيل فى تاريخ لغة العرب ، على الرغم من قصر هذا العصر ، إذ لم تبلغ مدته أكثر من خمسة عشر ومائة عام (١٣٢ — ٢٤٧ هـ)

سياسة الخلفاء فى هذا العصر

— ١ —

تولى عرش الخلافة فى هـذا العصر عشر خلفاء ، دانت لهم الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة

كان أولهم السفاح ، الذى اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل الكوفة عاصمة لملكه ، وظل فى الخلافة أربعة أعوام (١٣٢ — ١٣٦ هـ)

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من عشرين عاماً (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، وطد فيها ملك بنى العباس ، وبنى بغداد عام ١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم

العريقة فى الثقافة والحضارة ، وكان متقدماً فى علم الكلام . داهية أديباً مصيباً فى رأيه . جميل التدبير حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن الدول رونقاً ، وأوسعها رقعة ، بيد أنها صبغت فى عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدى ، الذى ازدهرت فى عهده الحضارة وشاع الترف ، وتقدمت العلوم والفنون والآداب ، وعاش فى رعايته كثير من العلماء والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نكل بالزنادقة ، ومات عام ١٦٩ هـ ، فتولى بعده ابنه الهادى ، الذى ظل فى الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخوه هرون الرشيد ابن المهدى .

كان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تموج بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد من فحولة الشعراء [1] . وكان الرشيد يقتفى فى سياسته آثار جده المنصور ، وفى سماحته آثار والده المهدى ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم فى عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكبهم نكبة هزت النفوذ الفارسى هزاً عنيفا ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ)

وكان عهد المأمون درة فى تاج الحضارة الأسلامية ، وغرة فى جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم فى أيامه ، ونبغ فحول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهت حركة الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد فى أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة

---

(١) ١٧٠ ج ٣ يتيمة الدهر للثعالبى

بعد أن قتلوا أخاه الأمين .. وتولى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، وكان عسكرياً بنشأته وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأتراك ، فبدأ نفوذهم في الدولة على أيامه ، وبنى (سامرا) واتخذها حاضرة لملكه عام ٢٢١ هـ ، وسارت في عهده نهضة العلم والأدب في طريقها الذي كانت تسير فيه . . وولى بعده ابنه الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ)

وامتاز عهد جعفر المتوكل على الله بشدة نفوذ الترك ، وبالعداء الشديد للشيعة ، وباضطهاد المعتزلة والاعتزال ، وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها ، حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتله الأتراك عام ٢٤٧ هـ . . وبذلك بدأ طور جديد في تاريخ الخلافة العباسية ، هو عهد نفوذ الأتراك .

— ٣ —

وفي هذه الفترة القصيرة — فترة نفوذ الخلفاء — كان للعنصر الفارسي مكانة عالية عند العباسيين ، وحظوة كبيرة في قصورهم ، وكان بيدهم مقاليد الأعمال ، وتصريف شئون الخلافة ، كان الخليفة عربيا هاشميا ، ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسيون ، يزيد سلطانهم ، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم ، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالى في الدولة ، حتى كان أكثر من تولى الأعمال المنصور منهم ، إذ قدمهم على العرب ، وكثر استخدامهم بعده ، حتى زالت رياسة العرب وهيمنتهم . وفي عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس ، فسيطر البرامكة — وهم من سلالات فارسية قديمة — على شئون الدولة ، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشا عنيفا عام ١٨٧ هـ . وكان المأمون ينتصر للفرس ، إذ كانوا أخواله ، وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة ، وأخذها من يد أخيه الأمين ، ويروى أن عربيا من أهل الشام قال له : « انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » ، فقال له المأمون : « أكثرت علىّ يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت

قيساً عن ظهور الخيل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ماأحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزب عنى »

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يثقوا بالعرب ، فأقصوهم عن الحكم والسلطان وأبعدوهم عن تصريف شئون الدولة ، وأذلوهم بالحروب والتشريد والانتقام وسفك الدماء . وتظهر هذه النزعة واضحة فى قول ابراهيم بن محمد رأس الدعوة العباسية فى وصيته لزعيم شيعته ، أبى مسلم الخراسانى : «وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فإنما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله» .

ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسى نقل العاصمة إلى بغداد فى العراق ، لقربها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس الكسروى فى الدواوين والسياسة وأساليب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية فى كل ناحية حتى فى العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان والنيروز وسواها ، وانتشار ثقافة الفرس وعلومهم وآدابهم .. وكثر الفرس كذلك فى قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، وقصرت عليهم المناصب الكبيرة كالوزارة .. حتى أصبحت الدولة عربية اللغة ، إسلامية الدين والأخلاق ، فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة فى عهد المعتصم كرههم وحذر منهم ، وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمه « ماردة » منهم ، وبنى لهم (سامرا) ، وجعلهم قواد جيشه ، ومكن لهم فى الدولة ، ولم يمض غير قليل حتى صار لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة فى عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه عام ٢٤٧ هـ فى قصره « الجعفرى » ، وقتلوا معه وزيره « الفتح بن خاقان » .. وكان

ذلك مصرعاً دامياً لمجد الخلافة ونفوذ الخلفاء . وفى ذلك يقول يزيد المهلبى الشاعر من قصيدة طويلة فى رثاء المتوكل :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد ... وهل لمن فقدت عيناه مفتقد

ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حتمكم السادة المذكورة الحشد

ويقول البحترى يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تغير حسن الجعفرى وأنسه ... وقوض بادى الجعفرى وحاضره

تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره

إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

وإذ صيح فيه بالرحيل وهتكت ... على عجل أستاره وستائره

ووحشته حتى كأن لم يقم به ... أنيس ولم تحسن لعين مناظره

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره (١)

فأين الحجاب الصعب حين تمنعت ... ببيبقة أبوابه ومقاصره

وأين عميد الناس فى كل نوبة ... تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره

ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلته ... وأعظم آفات الملوك عبيدها

بنى هاشم صبراً لكل مصيبة ... سيبلى على وجه الزمان جديدها

---

(١) مكاسر : جمع مكسر ، وهو جذع الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال فلان طيب المكسر أى محمود عند الخبرة

— ٣ —

وسياسة الدولة العباسية فى عصر نفوذ الخلفاء تنحصر على وجه الإجمال فى أمور ثلاثة :

الأول : نشر الثقافة والحضارة فى أرجاء دولتهم الواسعة . والعناية بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواها إلى اللغة العربية ، وتشجيع الفنون والآداب فى كل مكان

الثانى : الاهتمام بأمر الموالى ، وتقريبهم والإغداق عليهم ، وبسط النفوذ والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالى حظاً عند الخلفاء الفرس ثم خلفهم الترك .

والثالث : العناية بالمظهر الدينى الذى أقاموا عليه دعوتهم ، وشيدوا على أساسه دولتهم ؛ ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاة أمورهم ؟ ، فلا عجب إذاً أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة فى الحشد الحاشد من رجال دولتهم ، وقواد جيوشهم ، وأن يخطبوا الناس ويعظوهم ، وعليهم بردة النبى ، وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين .. ويصور البحترى فى قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لأداء الصلاة الجامعة فى عيد فطر ، تصويرا بارعاً رائعا ، فيقول منها :

فأنعم بيوم الفطر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مشهر

أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العثير

وافتن فيك الناظرون فإصبع ... بوما إليك بها ، وعين تنظر

يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من أنعم الله التي لا تكفر

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر
لوان مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر
ووقفت في برد النبي مذكراً بالله تنذر تارة وتبشر
سلوا وراءك آخذين بعصمة من ربهم وبذمة لا تخفر

oberkandi.com

امتزاج العرب بالعجم[1]

وآثاره فى الحياة الاجتماعية والأدبية

مدى هذا الامتزاج :

فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ، وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ، ومدنية باهرة . وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفى أقل من قرن أصبحت دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة فى الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب فى السكنى والمعيشة والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ، وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا من آباء عرب وأمهات أعجميات

وكان العرب قبلا هم السادة والحكام ، وبيدهم شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ماهو عربى ، ويضعون الأعاجم فى منزلة دون منزلتهم.. فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالى يرفعون رءوسهم ويعتزون بكرامتهم ؛ ويمنون بأياديهم على الخلافة ، وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأعرق منهم سلطاناً ، وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد ، وأصبح منهم الوزراء والقواد وكبار الكتاب ،

---

(١) يقصد بالعجم ما عدا العرب ، أى السلالات الأجنبية غير العربية : من فرس وروم وهنود وسريان وحبش وزنوج وسوام

وحاشية الخليفة، وعماله وولاته ... وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغلوا فى أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالى ، أثره البعيد . .

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ، بل والخلفاء والأمراء، كانوا من أعجميات : فالهادى والرشيد ابنا « الخيزران » وهى أم ولد من خرشنة — بأرض الروم — ، والمأمون أمه « مراجل » ،والمعتصم أمه « ماردة » ؛ والواثق أمه « قراطيس» وهى رومية ، والمتوكل أمه « شجاع » خوارزمية، أما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهى عربية هاشمية — وكان خصوم الدولة كثيراً ما كانوا يلوحون للخلفاء بنشأتهم فى أحضان أمهاتهم الأعجميات . كتب محمد بن عبد الله العلوى للمنصور : «ولا أعرقت فى الأماء ، ولا حضنتنى أمهات الأولاد » ، فبعث إليه المنصور برسالة يقول فيها : « وأما ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الأماء ، فقد فخرت على بنى هاشم طرا : أولهم ابراهيم ابن رسول الله ، ثم على ابن الحسين الذى لم يولد فيكم أحد بعد وفاة رسول الله مولود مثله» ويقول الشاعر متألما من كثرة أولاد الأماء:

إن أولاد السرارى كثرت يا رب فينا
رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

وكان للجوارى والقيان اللواتى كثرن فى قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير فى زيادة الامتزاج والاختلاط ؛ يروى أن الرشيد كان فى قصره ألفا جارية . والمتوكل أربعة آلاف .. وكانت هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن فى الأسواق ، ويهدين كما تهدى الطرف النادرة

وكان من أظهر العناصر التى زاد امتزاجها بالعرب : الفرس والروم والترك.

فالفرس كانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، وكانت لهم المنزلة الرفيعة فيها طوال هذا العصر .. وأما الأتراك فكانوا يلون الفرس فى المكانة ثم قربهم إليه المعتصم واصطفاهم ، فزاد خطرهم ، وقويت شوكتهم ، وأصبحوا أولى النفوذ فى الخلافة ، وبلغ بهم البطر والافساد أن قتلوا الخليفة المتوكل على الله . ذلك لما كانوا عليه من ضعف فى الأخلاق ، وعبث بالنظام ، وإفساد للأمن ، ومن شراهة فى جمع المال ، وحب للهو والشهوات ؛ على أن هؤلاء لم يتميزوا بسمة إلا بالنظافة والجمال ، وحب الجندية والفروسية ، وكانوا ينتصرون لمذهب أهل السنة ؛ ويكرهون الاعتزال والفلسفة والجدل فى الدين .

وأما الروم فقد كثروا فى بيوت السادة والمترفين ، وكان منهم الغلمان والجوارى ، وسارت شهرتهم بالجمال والظرف والذكاء ، وثقوب الذهن وحدة الخاطر ، والإلمام ببعض الثقافات .. وإلى جانب هؤلاء وجد الزنوج الذين كانوا يجلبون من سواحل إفريقية الشرقية ، ليعملوا فى الزراعة والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة .

ولقد نشأ عن تقريب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب فى الاضمحلال وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندمجوا فى غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة ..ومهما يكن من شىء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاط البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين

بالاسلام ، وتربطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والأخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء

آثاره فى الحياة الاجتماعية :

لاريب أن هـذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، فى حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جلية فى الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفى العقول والأجسام ، وشتى نواحى المعيشة والحياة ، مما نستطيع أن نصوره فيما يلى :

— ١ —

انتشرت العادات الفارسية فى المجتمع فى هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذى صورناه ، وذلك الامتزاج الذى شرحناه ، سواء فى الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والغناء . فذاع اللعب بالشطرنج والنرد ، والخروج إلى البوادى والقرى للراحة أو الصيد ، واصطحاب الاخوان للنزهة بين الرياض والوديان ، وأخذ العرب يحاكون الفرس فى العناية بموائدهم ، ووضع الزهور والرياحين عليها ، وفى تنسيق البيوت ، وإعداد الحجرات ، وفى الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً ، ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان ، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهانى والهدايا

وذاعت الأزياء الفارسية ، من قلانس وأقبية ، وعمائم ، وسواها

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف ، حتى انهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة فى غير طائل ، اللهم إلا إشباعاً للنفس ، وإرضاء لداعى اللهو واللذة ، فلا عجب أن غالوا فى مآدبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة ، حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بزبيدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من

المآدب على طول الأيام ، وكانت الهبات فيها لاتتناهى . وكذلك فعل المأمون فى بنائه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ ، فقد أعطاها فى صداقها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد الشموع الهائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة

وأولعوا بالغناء ، وتفننوا فيه ، وأبدعوا فى ألحانه وجددوا فى آلاته ، وأكثروا فى مجالسه من الملح والعبث والشراب

وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها ، وبهجة مناظرها ، وروعة قصورها ومتنزهاتها وميادينها وشتى مظاهر الحضارة فيها ، قال الشاعر :

أعاينت فى طول من الأرض والعرض ... كبغداد داراً ؟ إنها جنة الأرض
صفا العيش فى بغداد واخضر عوده ... وعيش سواها غير صاف ولاغض
تطول بها الأعمار إن غذاءها ... مرىء ، وبعض الأرض أمرأ من بعض

أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيقون بها ذرعاً ، للشقاء والبؤس الشديد الذى كانوا يعيشون فيه ، قال شاعرهم فيها :

تصلح للموسر لا لامرىء ... يبيت فى فقر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى ... أصبح ذا هم ووسواس

ويصور أبو العتاهية غلاء الأسعار فى بغداد تصويراً رائعاً فيقول :

من مبلغ عنى الإما ... م نصائحاً متواليه
إنى أرى الأسعار أسـ ... ـعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة ... وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر را ... ئحة تمر وغاديه
من للبطون الجائعا ... ت وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لا فقد ... ت ولا عدمت العافيه

ألقيت أخباراً إليك عن الرعية شافيه

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديدا ، فالنفوذ والثراء وحياة اللذة والنعيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم

وقد استلزم الترف : المغالاة فى البنيان ، والتنافس فى تشييد القصور ، حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالا طائلة ، وأنفق المتوكل على بناء « الجعفرى » الملايين من الدنانير ، وأكثروا من تشييد البرك والحدائق والدور والقصور وبيوت العبادة ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت المناصب الرفيعة فى الخلافة ، كمنصب الوزارة الذى تقلده فى هذا العصر أفذاذ من الرجال ، كأبى سلمة الخلال وزير السفاح ، وأبى أيوب الموريانى وزير المنصور ويعقوب بن داود وزير المهدى ، والبرامكة الذين وزروا للرشيد ، وبنى سهل الذين وزروا للمأمون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسى ، والتقاليد والعادات والنظم الفارسية فى دولة الخلافة

— ٢ —

وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد فى العقول والأفكار ، فاتسعت الثقافة ، ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت المدارك . ونمت المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ، يروون منها ظمأهم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ، الذى دعا إلى امتزاج الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم القديمة من فرس ويونان ورومان وسريان وسواها ، وأخذ العرب يتحضرون ، وينشئون المدارس ويشيدون خزائن الكتب ودور الحكمة ، ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهنود ، ومعارف سواهم من الشعوب

أما أثره في الأجسام فهو غير خفي أو منكور ، فلا شك أن العربي قد صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة في الجسم وسلامة في البدن ، ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم[1] ، ويمتازون بفراهة الأجسام الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة . والحذق في الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص ومميزات

— ٣ —

وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد والزندقة التي حاربها المهدي والرشيد حربا لاهوادة فيها ، كما شاعت الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والغزل بالمذكر ، وانتشرت الرشوة والخلاعة في كل مكان ، وكان للقيان والجواري أثرهن في هذا الميدان

وإن كنا لا ننكر أن الامتزاج قد أكسب العرب سعة أفق ، ورحابة صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لا يستأثر بالخير ، بل يشرك معه في الفضل سواه ، وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار لين العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثاً مهذباً ، يدين بالمحبة والإخاء

* * *

وبعد فقد كان لهذه المظاهر العديدة ، التي نشأت عن الامتزاج بين العرب والعجم ، أثرها الشديد في تنوع الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وتوزعها بين نسك ولهو ، وترف وفقر ، وإيمان وإلحاد ، وفي اصطباغها بصبغة التجديد وانطباعها بطابع قوي من الحضارة والمدنية

---

(١) الابن الذي يولد من أب عربي وأم أعجمية يسمى « هجينا » ، والذي يكون من أب عجمي وأم عربية يسمى « مقرفا »

آثاره فى الحياة الأدبية :

وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة فى تهذيب الأفكار، وصقل الأخيلة ، وتضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر ونثر، حتى ليلمس الدارس الفروق واضحة بين الادب العربى فى هـذا العصر والأدب فى العصور السالفة .

— ١ —

فلقد نشأ بتأثير هذا الامتزاج ـ فى الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلاعة والمجون فى الأدب ، كالإغراق والمبالغة فى وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولا شك أن تفشى هـذه الألوان وذيوع تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الاجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد، وما تحمل بين ثناياها من شهوات طاغية ، ونزوات طائشة ، ومتع آثمة.

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية، فرأى العرب طراز القصة فى النثر ، وأكبوا عليها ، وأعجبوا بها ، حتى لقد نظمها أبان اللاحقى شعراً ، بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنه ... وهو الذى يدعى كليلة دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله ... والسخفاء يشتهون هزله
وهو على ذاك يسير الحفظ ... لذ على اللسان عند اللفظ

— ٣ —

وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف فى الأدب العربى ، ونما نمواً واضحا ، واتسع مجاله ، وانفسح مداه . فهذه مظاهر الحضارة المختلفة من قصور ورياض ، وأنهار وبرك وغدران ، تتوالى صورها أمام أنظارهم ، فتلهب شاعريتهم ، وتسمو بأفكارهم ، وتحلق بأخيلتهم .

وهذه أيضا عادات العجم وتقاليدهم وأزياؤهم ، ومواسمهم وأعيادهم ، ومجالس لهوهم وشرابهم وغنائهم ، ومرابع جواريهم وغلمانهم . كل ذلك قد أطلق الألسنة ، وفتق الأخيلة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى الحواس . فأخذوا يصفون هذه الألوان التى بهرهم بريقها ، وأسرهم جمالها ، وأخذ بألبابهم مافيها من حسن ونضارة . فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف ، وعبروا عنها أجمل تعبير

يصنع الأمين لنزهته فى دجلة خمس حراقات على صور الحيوانات ، فيأخذ أبو نواس فى وصفها ، فيقول :

سخر الله للأمين المطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب

فإذا ما ركابه سرن برا ... سار فى الماء راكبا ليث غاب (١)

عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث تمر مر السحاب

سبحوا إذ رأوك سرت عليها ... كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢)

ذات زور ومنسر وجناحيـ ... ـن تشق العباب بعد العباب (٣)

تسبق الطير فى السحاب إذا ما ... استعجلوها بجيئة وذهاب

---

(١) أى سفينة على صورة الأسد

(٢) أى فوق سفينته الأخرى التى صنعت على شكل العقاب

(١) الزور : الصدر

ويبنى المتوكل قصره « الجعفرى » فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :

وما زلت أسمع أن المـلـو ك تبنى على قدر أقدارها
فلما رأينا بناء الإمام رأينا الخلافة فى دارهـا
بدائع لم ترهـا فارس ولا الروم فى طول أعمارها
إذا أوقدت نارها بالعراق أضاء الحجاز سنا نارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارهـا

ويصف البحترى الربيع وصفا رائعا فيقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقهـا برد الندى فكأنه يبث حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما

إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، نبضت بها هذه الحياة المترفة اللاهية .

— ٣ —

ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته ، وعمق الفكرة وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ، وبراعة التحليل . فظهر ذلك بصورة واضحة فى آدابهم ، ومأثور أشعارهم ، ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى فى القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد والاستقصاء والتحليل . كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعانى الدقيقة ، والأخيلة البعيدة ، والفكرة العميقة .

ومما زاد فى ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشار وأبى العتاهية وأبى نواس ثم ابن الرومى وغيرهم

يقول ابو إسحق ابراهيم بن موسى :

غزتنى بجيش من محاسن وجهها ... فعبا لها طرفى ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها ... يريد اغتصاب القلب قسراً على الحب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا ... جعلت فؤادى فى يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا ... على كبدى : ياصاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر ... قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

ويقول اسحق الموصلى :

أخاف عليها العين من طول وصلها ... فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
وما كان هجرانى لها عن ملالة ... ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة ... أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

ويقول مسلم :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

ويقول ابن المعتز فى الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

ويقول سعيد بن حميد :

لم آت ذنبا فإن زعمت بأن ... آتيت ذنباً فغير معتمد
قد تطرف الكف عين صاحبها ... فلا يرى قطعها من الرشد

ويصور أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ، فقد رأى أن لاءماً لام ابن الرومى فقال له : لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون — وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه و بفرشه فى المنازل :

كأن آذريونها والشمس فيه كالية (١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية (٢)

فصاح وا غوثاه ! تالله لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ! ولكن انظر إذا أنا وصفت ماأعرف ، أين يقع قولى من الناس هل لأحد قط قول مثل قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجو دكناً والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر علي أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض (٣)

وقولى فى صانع الرقاق :

ماأنس لاأنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل المح بالبصر (٤)
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر (٥)
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر (٦)

(١) كالية : مخفف من كالئة بالهمز أى ناظرة ، من كلأ بصره فى الشىء إذا رددده
(٢) الغالية : نوع من الطيب .
(٣) الخود : الشابة الحسنة الخلقة ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهى شعار يلبس تحت الثوب
(٤) دحاه يدحوه : بسطه .
(٥) قوراء : واسعة
(٦) انداح : اتسع .

وقولى فى قالى الزلابية :

رأيته سحراً يقلى زلابية ... فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله ... فيستحيل شبابيكا من الذهب

— ٤ —

وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت المبالغة والغلو الشديد فى أدب الأدباء وشعر الشعراء . . يقول أبو نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك كرم الطباع

ويقول بشار فى محبوبته :

إن فى بردى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

ويقول ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليلات العقلية فى الأدب، شعره ونثره . .

يقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضرا ... بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول أبو تمام :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل ... ويكدى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ... لماتت إذاً من جهلهن البهائم

وقال بشار :

عى الشريف يشين منصبه ... وترى الوضيع يزينه أدبه
والصدق أفضل ما حضرت به ... ولربما ضر الفتى كذبه

وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ومن التعليلات الطريفة قول أبى تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وقوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى (١)

وقال العباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عينى خيراً ... وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيئا ... ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى ... فاستدلوا عليه بالعنوان

— ٥ —

وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت فى اللغة ألفاظ جديدة من لغات الأعاجم ، فزادت ثروتها فى الألفاظ كما سيأتى .

على أن هذا الامتزاج كان له آثار سيئة أيضا ، إذ شاع اللحن ، وفشت العجمة واللكنة فى الألسنة ، حتى أصبح شعرهم لا يحتج به ، كما كان يحتج بالشعر القديم .

(١) عطل من الأدب عطلا وعطلا إذا خلا منه ، والعطل : التجرد من الحلى

ترجمة العلوم والآداب الأجنبية

أطوارها — وأشهر القائمين بها

كان للعباسيين شغف شديد بالعلوم والآداب ، وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة فى العلم ، الأصيلة فى الحضارة والمدنية

وكانت هذه الامم التى امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائحهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التى اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولاغنى للمسلمين عنها ، فأقبلوا عليها بكل مافيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها ، ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فاليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفذاذ ، كسقراط وأرسطاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

وللكلدانيين شهرتهم فى الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة فى النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة فى الطب والفلك ورصد الكواكب . ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كمدرسة الرها ، وقنسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان

فى أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق كما نقلوا من علوم الهند كتباً فى النجوم والطب والآداب . هذا بالإضافة إلى ماورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعوث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنو شروان العادل ، ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد «جوستنيان» قيصر الروم لهم على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية ، وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة فى الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين

واتصل المسلمون فى هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حبا لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة فى الإفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية

وهكذا بدأت الترجمة فى العصر العباسى : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمرها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء فى استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبة على هذه الممالك المفتوحة . فكان لا بد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعتز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة ، إذ وجدت فى اللغة استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التى أصبحت هى الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافاتها

ويعتبر كثير من مؤرخى الفكر حركة ترجمة العلوم فى العصر العباسى من أعظم الحوادث الفكرية فى تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك فى قيمة هذه الحركة الجبارة ، التى كان لها أكبر الآثار فى سير الحضارة الاسلامية الانسانية .

أطوار حركة الترجمة

لم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسيين أنهم ترجموا من كتب الأوائل شيئا . . اللهم إلا كناش أهرون فى الطب ، ترجمه ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاعها عمر بن عبد العزيز فى الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٩ هـ ولوعاً بالكيمياء والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له فى هذه العلوم كما يقول الجاحظ (١) وغيره ولكن ذلك لا يدل على أن حركة الترجمة كانت ذائعة فى عصر بنى أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واسعة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة فى عصر نفوذ الخلفاء من بنى العباس فيمكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

— ١ —

فالطور الأول يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أى من عام ١٣٦ هـ حتى عام ١٩٣ هـ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية فلما ولى المنصور عنى بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة

(١) ١/٢١٣ البيان والتبين ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يصله بما لديه من كتب الفلاسفة ، واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها إلى العربية [١] ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية [٢] . . ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنياً بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسي وأولاده ، وإبراهيم الفزاري ، كما قرب إليه جورجيس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذه طبيباً له . . ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .

أما المهدي والهادي فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهاهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولي الرشيـــد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل ما في قواه من جهد وعزيمة ، فقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخـذ أطباء وتراجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل ماسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والحيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد « دار الحكمة » ، التي كانت تحتوي نفائس الكتب من شتى اللغات . وقد أعيد في عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور

وفي هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كليلة ودمنة من الفارسية ، وكتاب السندهند من الهندية ، وترجمت بعض كتب ارسطاطاليس

---

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون و ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي .

(٢) ٢٤١ / ٤ للمسعودي .

فى المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطى فى الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسخون سخاء نادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ الآثار فى ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

— ٢ —

والطور الثانى لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهى بنهايته ، وكان المأمون عالما متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمه العقلى والعلمى لا حد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج التراجمة

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة فى كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم فى تعلمها ، ويخلو بالحكماء ، ويأنس بمحاضرتهم . .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة فى هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة

وكان المأمون فى العرب كبريكليس فى اليونان ، وأوغسطس فى الرومان ، فأتم ما بدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يبعثوا إليه بالكتب التى تقع فى أيديهم ، وجعل

من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة

— ٣ —

أما الطور الثالث من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ

ففي عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل في العلم أو رغبة في المشاركة فيه

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع العلم والعلماء ، فنشطت الترجمة في عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم في عصره هو الأسمار والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزروا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم

أشهر القائمين بالترجمة في هذا العصر

— ١ —

من أشهر المترجمين عن اليونانية : الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان من جملة المترجمين للمأمون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطى إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى ..

ومنهم كذلك قسطا بن لوقا البعلبكى ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً

حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة فى الطب

ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين المأمون ، وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن اسحق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ — ٢٦٤ هـ) وهو من انصارى الحيرة ، ثم ابنه اسحق المتوفى عام ٢٩٨ هـ

ومنهم : حبيش الدمشقى وهو ابن اخت حنين بن اسحق. وآل بختيشوع وهم من السريان وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم فى المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ماترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن اسحق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لأقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو

— ٢ —

ومن أشهر المترجمين عن الفارسية : عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت ، والحسن بن سهل ، وجبلة بن سالم ، وإسحق بن يزيد ، وهشام بن القاسم ، وسواهم

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة ، من أشهرها : كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع ؛ وكتاب خداينامه ، الذى ترجمه كذلك ابن المقفع ، وسماه كتاب سير ملوك الفرس ، وترجم كذلك الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، والدرة اليتيمة ، وكتاب التاج فى سيرة أنو شروان

ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً : شهد أردشير ، وتوقيعات كسرى ، وهزار أفسانه [١] وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة ، وكتاب أدب الحرب ، وسوى ذلك من نفائس المؤلفات .

— ٣ —

ومن مشهوري المترجمين عن الهندية : منكه الهندي الطبيب الذي عالج الرشيد ، وصالح بن بهلة الهندي الذي دخل بغداد في عهد الرشيد أيضاً ، ونال شهرة واسعة ، واشتدت مخالطته للأطباء ...

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسمار . ومما ترجم من كتب الأدب الهندي : كتاب سندباذ الكبير والصغير ، وكتاب بيديا في الحكمة ، وكتاب السند هند — أي الدهر الداهر — في الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن ابراهيم الفزازي .

— ٤ —

وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والكلدانية . ومما نقل عن الكلدانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار الكواكب . . وسواهما من نفائس المؤلفات .

لماذا أهمل الأدب اليوناني في الترجمة ؟

عني المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات ارسطو وشروح علماء مدرسة الاسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب

(١) معناه ألف خرافة

وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليونانى فى العلم والفلسفة

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئا يذكر من آداب اليونانيين . . فإذا قرأنا ثبت الكتب المترجمة نجدها تبحث فى كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نكاد نعثر على كتاب أدبى يونانى مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ما لليونان والرومان من آثار أدبية عالية فى القصص والتمثيل

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات فى علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والأسمار ، فهذا ابن النديم ينقل فى كتابه الفهرست أسماء كتب للروم فى هذين الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين ، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، مما تحفل به مصادر الأدب العربى ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار . . . وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . يروى ابن النديم أن على بن ربن النصرانى نقل كتاباً فى الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) . . وهذه الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافزاً على ترجمة بعض ما يؤثر منهما إلى العربية ، بعد تجريدهما مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلابسهما من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من إلف العربى ، وليس فيهما ما ينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لا تستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء فى البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن

---

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست

(٢) ٣١٦ الفهرست

بعض اليونانيين . ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى القديم ، كالأساطير والملاحم والتمثيليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة ، وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلياذة هوميروس ، ولا ما شابهها من الآثار .. مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها إلى العربية

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آداب اليونان ، ولا يقدرونها حق قدرها .. وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ، وخضعوا للحكم الاســـلامى .. ولعل فى هذا ما يفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم فى صناعة البيان . فهذا ابن الأثير يذكر فى كتاب « المثل السائر » أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً (١)

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلاهم كعباً ، وأكثرهم آثاراً ، فى الأدب والشعر ؛ فهم فى غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ما هم فى حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف . . وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسى على العموم قريب من ذوق العربى كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات

(١) ص ٢٠ المثل السائر

وجوار ، والأدب الفارسى فى جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول فى كتاب « المثل السائر » : إنى وجدت العجم يفضلون العرب فى الأسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفرس فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامة ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر »

ولم يجد المترجمون حائلا يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى العربية ، بل كانت يلقون الكثير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية ، وكان المترجمون يتقربون أحياناً إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أممهم ، التى تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأمجاد وأبطالهم المغاوير ، كما كانوا يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح المتعة ، لتكون مادة للمفاكهة والسمر

وفى هذا جميعه ما يدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير للأدب اليونانى فى الأدب العربى . . أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً فى الأدب العربى من الآداب اليونانية .

أثر الترجمة في لغة العرب :

أثمرت حركة الترجمة ثمارها النافعة في العلوم والآداب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة في لغة العرب ؛ فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية في الألفاظ والأساليب ، ففوق تعريب العرب للأسماء الأعجمية لتأدية أغراضهم ومعانيهم وأفكارهم ، ولتقوم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ؛ كذلك وضعوا مصطلحات جديدة لقواعد العلوم ومعارفها ، وأكثروا من التوسع في مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وما إليها . . هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوة وحياة وتجديد ودقة تصوير وبلاغة تعبير .

وقد هذب المنطق والفلسفة أفكار الأدباء ومعانيهم ، وصقل إنتاجهم وخيالاتهم ، وغير نظرتهم إلى الأشياء ؛ فظهر العمق والترتيب العقلي ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر مما يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم ، وينتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمبالغات الكاذبة .

فضلا عن أنه قد نشأت علوم جديدة في عصر الترجمة كانت أثراً لها ، أمدت اللغة والأدب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة في النواحي اللغوية والأدبية والعلمية .

على أن حركة الترجمة كان لا بد أن يكون لها بعض الأضرار ، التي عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها كثرة استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة وأفعال الكون والبناء للمجهول وصوغ المصادر الصناعية مثل الكيفية والكمية والذاتية والعرضية والمائية والحيوانية والإنسانية ، وكثرة

لفصل بالضمير الغائب، وسوى ذلك ، مما أورث الألسنة لكنة ، والأساليب
جمة ، والمنطق التواء ، والملكات ضعفاً ، والفطرة والطبع تعقيداً وضيقاً

هذا إلى ما نتج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوع الأسلوب
علمي ، واستحداث أصحاب كل علم لغة تأليفية لها رموزها ومعانيها وألفاظها
صعوبة فهم البعيد عن هذا العلم لأغراض العلماء والكاتبين فيه . . وهذه
لمصطلحات كثيرة متعددة : ففي الفلك والرياضة نجد : المرصد والزيج والتعديل
المخروط والدائرة والمثلث والمربع . وفي الطب نجد : الصيدلة والتشريح
الجراحة والتوليد والسوداء والصفراء . وفي الفلسفة نقرأ : الجوهر والعرض
التصور والتصديق والموضوع والمحمول والقياس والشكل والكيفية والكم
الماهية والهوية واللانهائية . . إلى غير ذلك من المصطلحات التي كثرت
حتى وضعت لها معاجم خاصة ، منها : كليات أبي البقاء ، وكشاف اصطلاحات
الفنون ، وكتاب التعريفات للجرجاني المتوفى عام ٨١٦ هـ .

التأثير الاجنبى

فى اللغة العربية وآدابهـــا

كان لامتزاج العرب بالعجم ، وما نشأ عنه من آثار ، وما ذاع بسببه من أفكار ، خطره الشديد ، ودويه البعيد ، فى البيئة الاسلامية العربية .. ومن أظهر ما نتج عن ذلك الامتزاج ، وترتب عليه ، ترجمة العلوم المختلفة ، من شتى اللغات ، إلى اللغة العربية ، كما فصلنا

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلا كبيراً ، وأقبلوا عليها إقبالا شديدا ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكوينا سليما ؛ وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التى تثقفت بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية ، وازدهرت الحضارة فى البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون فى موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة فى العواصم الكبرى للعالم الاسلامى : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ، ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم

وسواهم ـ عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع فى العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية فى طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجابة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا يأنفون قبلا من الزواج بالأعجميات ، ويمدونه عيباً ومهانة وجناية على الأبناء ، أقبلوا فى هذا العصر على الزواج منهن ، لما رأوا من وفرة جمالهن ، ونجابة أولادهن ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يزهدون فى التسرى ، إلى أن نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً ، فرغبوا فيه ، وأقبلوا عليه

فليس عجيبا إذن فى هذا العصر أن تكثر طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها فى الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبى فى الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين . أما فى عصر بنى أمية فكان أثره قليلا محدوداً ، لقلة الاختلاط ، ولأنفة العربى من الزواج بالأعجميات ، ونفور العربية من الزواج بأعجمى ، ولأن حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العلمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار ، وكان فحول الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب لا يزالون يعيشون فى بلاد العرب ، أو قريبا من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالى لا تزال تكون نفسها فى اللغة ، وتأخذ بنصيبها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد نضجت بعد مواهبها وملكاتها الأدبية

فلما جاء العصر العباسى وبدأ بناء الحضارة ، وذاعت ألوان الثقافة ، وقامت حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبى يبدو بوضوح فى اللغة العربية وآدابها.

ولنأخذ فى الحديث بشىء من التفصيل ، عن أهم هذه الثقافات وهى : الفارسية والهندية ، واليونانية ، ومدى أثرها فى لغة العرب ، وما أفاده منها الأدب

الثقافات الاجنبيـــة

وأثرها فى اللغة والأدب

الثقافة الفارسية :

ترجع صلات العرب بالفرس إلى ماقبل الاسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ، وسبباً لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية

ولقد أقام الأكاسرة إمارة الحيرة على حدود مملكتهم ، لحمايتها من عدوان القبائل العربية ، ولتأمين تجارتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوع كثير من الألفاظ الفارسية فى لغة العرب وآدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدى بن زيد وأمية بن أبى الصلت

وتأثر كذلك بعض الفرس بالآداب العربية،حتى ليقال إن بهرام جور — وهو فارسى قديم — تعلم فى الحيرة ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية

فلما جاء الإسلام خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامى ، وهاجرت القبائل العربية إلى هذه البلاد، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية،وحذق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب

ثم زاد اتصال الأمتين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة الموالى من الفرس ونقلت الخلافة إلى بغداد ، وأنشىء منصب الوزارة وجعل فى الغالب وقفاً على النبغاء الأذكياء من الفارسيين

ولقد جد الوزراء والكتاب الفرس فى نشر ثقافتهم وآدابهم والتمكين لمعارفهم فى البيئة العربية، حتى صار الإلمام بهذه الثقافة والتمكن من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب، ويجعله ملحوظ المكانة مرموق المنزلة. فإذا كان مطلعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم فى الحكم وطرائقهم فى السياسة، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب: «واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم» وقال الرشيد للكسائى معلم بنيه: «روِّنا من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وذاكرنا بآداب الفرس والهند»

وأصبح للثقافة الفارسية فى بغداد والحواضر العربية مقام كبير، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من أصول فارسية على التمكين لها وإشاعتها، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية

أثر الثقافة الفارسية فى اللغة العربية:

ويظهر أثر الثقافة الفارسية فى لغة العرب فيما يلي:

١ — الألفاظ الفارسية التى عربت ونقلت إلى العربية، وهى كثيرة لا تحصر لها، مثل الفالوذج لما يسمى عندنا «البالوذة»، واللوزينج[1]، والجوزينج لنوع من الفطائر يحشى باللوز أو الجوز، والكامخ وجمعه كوامخ وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويجفف، والطباهجة[2] لطعام

(١) فى اللسان: هى من الحلوى شبه الفطائف.

(٢) هو اللحم المشرح فى القاموس. وفى شفاء الغليل للشهاب الخفاجى: هو الكباب وفى اللسان: ضرب من قلى اللحم

من بيض وبصل وثوم ، والسكباج لمرق يعمل من اللحم والخل وأصلها سكبا ، وسك بمعنى خل وبا بمعنى طعام .. إلى غير ذلك من أسماء الأطعمة

ومثل . الدوشاب وهو نبيذ التمر ، والجلاب لماء الورد ، والمسطار لخمرة حلوة ، قال الأخطل : « حمراً عيونهم من المسطار » . وغير ذلك من أسماء الأشربة ...ومثل السمور [١] والسنجاب ، والخشنشار لطير الماء

ومثل : الدار صيني ومعناه شجر الصين ، والجلنار وهو زهر الرمان ، والبستان معرب بوستان وبو معناها رائحة وستان معناها موضع ، والكروبا ، والتوت ، والآذريون لنور أصفر معرب آذركون أى لون النار ، وكانت الفرس تتفاءل به .. إلى غير ذلك من أسماء النباتات

ومثل : الأسطرلاب [٢] ، والزيج لخيط البناء ، والهندز ، والزئبق ، والإكسير ، والمغناطيس ، والزرنيخ .. وغير ذلك من مصطلحات العلوم والصناعات

ومثل : البربط للعود ومعناه صدر العود لشبهه به — وبر بمعنى صدر — والبم والزير وهما من أوتار العود ، والطيلسان لما يلبس فوق الكتف ، والدرفس العلم الكبير والعسكر ، والتخت [٣] لما توضع فيه الثياب ، والدهقان لرئيس القرية ، والدورق لمكيال الشراب كما فى شفاء الغليل ، وفى القاموس المحيط هو الجرة ذات العروة ، والبيمارستان لموضع علاج المرضى وبيمار معناه مريض واستان موضع .. إلى غير ذلك من الأسماء الفارسية المعربة

---

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء .

(٢) آلة لقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين .. وتعرف بواسطة ذلك الأرقات

(٣) هو الدولاب

وهكذا أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريب موجوداً منذ العصر الجاهلي ولكنه زاد وعما في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين

٢ — قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التي زادت في ثروة العربية ، وجعلتها أقدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع في مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم

٣ — ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية في الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره في زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها

أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي :

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلي :

١ — كانت زعامة التجديد في الأدب العربي شعره ونثره في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع هما إماما التجديد في النثر في هذا العصر ، وبشار وأبو نواس شقا طريق التجديد للمولدين في الشعر . وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير ما في بلاغات العرب والفرس جميعاً من معان وخيالات وأساليب ، لذلك أسدوا آثاراً واسعة في الشعر والنثر ، فجددوا في المعاني والخيالات والأغراض وطرق الأداء ،

وبعد أن كان الأدب فى عهد بنى أمية عربياً خالصاً ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح فى عهد بنى العباس يزدان بأحلى وأروع ما فى أدب الفرس من معان وأخيلة فتعددت الأغراض ، واتسع مجال التفكير والخيال ، وظهر التأنق فى التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص فى هذا العصر : « كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية » ومثله كثير ممن أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وسواهم ؛ ممن كان لهم فضل كبير فى رقى الأساليب العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعانى والابداع والاختراع والتجديد فيها .

وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعانى الفارسية ترشد العربى إلى أمثل طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون مايتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالنرجس ، وكان يقول : « هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر توسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجمر فى اللهب

وكان ابن الرومى يأخذ حكم بهرام جور فينظمها شعراً عربياً .. ويقول بزرجمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى ، فقال الشاعر العباسى :

فأنفق ـ إذا أنفقت ـ إن كنت موسراً
وأنفق ـ على ما خيلت ـ حين تعسر
فلا الجود يفنى المال والجد مقبل ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

وقيل لابن المقفع : لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالى مشوبة بالمكاره ، فاقتصرت على الخمول ضناً بالعافية ، فأخذه العتابى فقال :

وإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات فى بطون الأساود[1]

وكان العتابى الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعانى والأخيلة ، وسئل لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، فالبلاغة لنا والمعانى لهم .

ويقول أبو هلال العسكرى فى رسالته « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم » : للفرس أشعار لا تضبط كثرة ، وللرومانيين أشعار دون الفرس »

٢ ـ هذا إلى ما جد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس وانتشار الثقافة الفارسية ، كالأدب القصصى ، وأدب الزهد ، وأدب المقامة ، وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً

وإن كنا لا ننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من ضعف الملكات ، وكثرة العناية بالبديع الذى يحول دون البساطة والاعتماد على الطبع

---

(١) الحيات العظيمة .

الثقافة الهندية :

اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وانسابت جيوش العرب المظفرة فى كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم الثقفى السند فى عهد الوليد بن عبد الملك .

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب ، ودخل العرب بعض جهات من الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط ، فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم العربى ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة بواسطة العرب الذين تعلموا الهندية والهنود الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التى كانت قد التهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتماثيل والنحت ، وبالحكمة ، التى كان الهنود معدنها ، وبالآلهيات والرياضيات

ويقول القفطى فى « أخبار الحكماء »[1] : والهند هم الأمة الأولى ، كثيرة العدد ، فخمة الممالك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز فى فنون المعرفة ، كل الملل السالفة . وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايتهم بالعلوم . فكانت الهند عند جميع الأمم معدن الحكمة ، ويتبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلت تآليفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم »

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكى بعض الأطباء من الهند أمثال منكه . ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا فى الحرب ووزعوا على الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ، كأبى عطاء السندى الشاعر ، وكابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور ، وسواهما

---

(١) ص ٢٦٦ المرجع

والهنود نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء في البلاغة والأدب .. قيل لبيلة الهندى : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها ، فترجمت فإذا فيها ما ترجمته : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الأمة بكلام السوقة ... » الخ (١)

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا بالهنود في الفلك ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير الجميل ، قال ابن الرومي في أبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة طويلة :

غلط الناس : لست تلعب بالشط ... رنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكر يدب في القوم أخفى ... من دبيب الفناء في الأعضاء
وأظن افتراسك القرن فالقر ... ن منايا وشيكة الإرداء
وأرى أن رقعة الأدم الأسمر أرضا جللتها بدماء
تقرأ الدست ظاهرا فتؤديه جميعاً كأحفظ القراء

على أن أثر الثقافة الهندية في لغة العرب كان ضئيلا يتمثل في هذه الألفاظ الهندية التي عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والآبنوس ، والببغاء ، والخيزران ، والأهليلج ، وسوى ذلك من أسماء الحيوانات والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها في أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص

(١) ١ / ٧٩ البيان والتبيين للجاحظ .

والحكم الهندية المختلفة ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم فى الفلك ، فهذا أبو نواس يقول :

قل لزمير إذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظره فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً مؤذياً

ومن مظاهر تأثر الشعر بأقوال الهنود فى الفلك قول أبى نواس فى الخمر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج ثم سيرها من هناك ، وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها منه ، وإذا عادت إليه قامت القيامة .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء فى غير الشعر ، يقول ابن قتيبة : قرأت فى كتاب من كتب الهند : « شر المال مالا ينفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن » إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربى من الثقافة الهندية .

الثقافة اليونانية :

حين ازدهرت النهضة العلمية فى العصر العباسى ، وشجع العلماء ترجمة العلوم ، أخذ السريان يترجمون الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت الكتب الفارسية المترجمة الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك

بدأت صلة العرب بثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم . ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات اليونان كما أسلفنا

ويبدو أثر الثقافة اليونانية فى لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة عربت مثل : البرجد وهو كساء غليظ مخطط ، والزبرجد والياقوت والزمرد والقيراط والأوقية والبلغم والبرقوق واللوبيا والترمس ، والحاثليق والبطريق

ومثل : إيساغوجى بمعنى المدخل وسموا به مقدمات المنطق وهى الكليات الخمس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . ومثل السفسطة والفلسفة بمعنى الحكمة ، والهيولى بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون

إلى غير ذلك من أمثال هذه الألفاظ التى لا عد لها

وقد أثر المنطق اليونانى فى الفكر العربى تأثيراً كبيراً إذ أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير فى عقول المسلمين

وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معانى جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية فى أدب العرب يتجلى فى نقل بعض الحكايات والأسمار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعانى الفلسفية فتأثر بها الأدب العربى واكتسب منها سعة فى الخيال وتهذيبا فى الفكر

ويهمنا أن نقرر أن الأدب العربى قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفد من الأدب اليونانى نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روائعه لما أسلفنا .

تولد العامية

واختلافها باختلاف الأقاليم

عدوى اللحن فى هذا العصر :

كان اللحن حتى نهاية عصر بنى أمية قليلا محدوداً ، إذا قيس بما حدث بعد ذلك ، لسلامة الملكات ، واستقامة الألسنة ، وعناية الخلفاء والأمراء بمقاومته ، والعمل على وضع الأعجام والشكل وأصول النحو ، ليهتدى بهديها الضال ، ويستقيم المعوج ..

فلما جاء العصر العباسى ، وزاد الفتح الإسلامى ، واعتمدت الدولة على الموالى ، وقربتهم إليها ، وعظم نفوذهم فيها ، وتسنموا أرفع المناصب وأعلى المراتب ، وزاد اختلاطهم وامتزاجهم بالعرب ، استفحل أمر اللحن ، فأصبحت الدولة أعجمية خراسانية ، بعد أن كانت فى عهد بنى أمية عربية أعرابية ،

وزاد فى انتشار اللحن وعظم البلوى به كثرة المولدين ، وشدة مداخلة العجم للعرب ، وانتشار الحواضن والمربيات والخدم والجوارى الأعجميات فى القصور ، مما أسقم الملكات ، وأضعف السلائق ، وجعل كل جهد يبذل لتقويم الألسنة وتربيتها على العربية وفصاحتها هباء . فهؤلاء خلفاء بنى العباس قد ربوا أبناءهم على أيدى شيوخ العربية وأئمتها وفحولها ، من أمثال : الشرقى القطامى مؤدب المهـــدى ، والأحمر النحوى والكسائى اللذين كانا يؤدبان الأمين ، والبزيدى مؤدب المأمون ، والفراء مؤدب أولاد المأمون ، والمفضل الضبى مؤدب الواثق . ومع ذلك لم يسلموا من اللحن ، وفساد الملكات ؛ ولم يقووا على صد هذا التيار المتدفق ؛ ومما يؤثر عن المعتصم أنه جاءته رسالة من بعض عماله ،

وفيها كلمة « الكلأ » فاستعصت معرفة معناها عليه ، فسأل وزيره احمد بن عمار عنها ، ماهى؟ فقال الوزير : لاأدرى ، فقال المعتصم . خليفة أمى ووزير عامى ، ثم سأل عمن بالباب من الكتاب ، فقيل له : محمد بن عبد الملك الزيات ، فأدخل عليه ، فسأله عن معنى « الكلأ » فقال : هو العشب عامة ، فإن كان رطباً فهو الخلا ، وإذا يبس فهو الحشيش ، فعرف المعتصم فضله واستوزره .

وسمع سعيد بن سلم الخليفة الرشيد يلحن فخف فى عينه . . ويروى كذلك أن المنصور لحن وفى المجلس أعرابى ، فصر الأعرابى أذنيه ، ثم لحن ثانية فقال : أف لهذا ، ثم لحن ثالثة فقال الأعرابى : أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . . وكان المأمون يتكلم مع الناس على سجيته فإذا تكلم مع ابن الهيثم تحفظ خوفا من اللحن لأنه يعرف الأعراب . وسمع بعض ولده يلحن ، فقال : ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويقل حجة خصمه ، ويملأ مجلس سلطانه ، بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته ، فلا يزال الدهر أسير كلمته ؟

ولم يسلم من اللحن كذلك العلماء والأدباء والكتاب ، فهذا الرشيد يعاتب الفراء على ما كان يقع فيه من لحن ، فقال : ياأمير المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت . . وهذا شيخ العربية أبو عبيدة بن المثنى كان على سعة علمه باللغة إذا أنشد بيتاً لم يقم إعرابه .

وكان اللحن أنواعا : فلحن فى الإعراب ولحن فى بناء الكلمة ، ثم زاد اللحن شناعة حتى انقلب إلى عى ولكنة وعجز ونطق بالألفاظ محرفة . مما نشأت عنه اللغة العامية على توالى الأيام .

تولد العامية :

ورغم جهود الخلفاء العباسيين فى مقاومة اللحن ، وصد تياره المتدفق ، لتسلم العربية ، وتبقى قوية حية مزدهرة ، فقد أخذت العامية فى الظهور والتولد ، وأخذ خطرها يتفاقم ، وشرها يتزايد ، يوما بعد يوم .

والعامية هى اللغة التى استحدثها العامة للتفاهم والتخاطب بها . . ثم تابعهم عليها الخاصة ، بعد أن ضعفت الملكات وفسدت السلائق والقوت الألسنة . وتقوم العامية على الألفاظ العربية المحولة عن أصلها بالتحريف أو التصحيف ، وعلى المولد بالتوسع فى الاشتقاق والنحت ، وعلى الأعجمى الدخيل غير المعرب . وتتحرر العامية من الأعراب ، ولا تتقيد بقيود اللغة العربية الفصيحة فى الجمع والتأنيث والتذكير والأشارة والأضافة والنسب وما إلى ذلك ، ويكثر تأثرها فى طرق الأداء ببعض الأساليب الأعجمية ، كأن تبدأ الجملة بالإسم دائما ، وكتأخير أدوات الاستفهام عن حقها من الصدارة ، وكسر حروف المضارعة وإدخال الباء على أول المضارع ليدل على الحال ، وإدخال الحاء عليه بدل السين ليدل على الاستقبال ، وغير ذلك من طرق ووسائل تولد اللغة العامية .

وحين نشأت العامية فى هذا العصر ، رأينا لغتين مختلفتين تسيطران على الألسنة : اللغة الفصحى - وهى لغة الكتابة والخطابة والشعر - واللغة العامية التى يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين ، والتى لا تتقيد بقيد ، ولا تقف قواعدها عند حد ، ولا تبالى باستعمال الألفاظ كيفما كانت ، وتميل إلى إسكان أواخر الكلمات مهما كان العامل الأعرابى .

واستمرت تلك الظاهرة آخذة فى الذيوع والانتشار والسعة بعد هذا العصر ، وأخذت فنون من الأدب العامى تحدث وتتولد : كالمواليا والزجل والموشحات ،

وسواها ؛ وبذلك قويت العامية ، واستفحل خطرها ، وصار أدبها ينافس أدب الفصحى منافسة شديدة .

ويروى أن أول ظهور الموالياً كان على لسان جارية للبرامكة ، أخذت تبكيهم وتندب أيامهم ، وتقول فى رثائهم :

يادار أين الملوك راحوا أين الفرس ... أين الذين رعوها بالقنا والقرس
قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس ... سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

ولقد أخذت العامية تحاول أن تتميز وتستقل عن العربية ، وتغزو الجماهير وتنال استحسانهم ، وتكسب الأنصار من العامة والدهماء فى العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا والاندلس وخراسان . ومع ذلك فقد صغرت عن أن تصير لغة قراءة وكتابة ، ولم تتطاول إلى ذلك فى يوم من الأيام ، ولم يحرص أحد على تدوين آثارها وآدابها

وقد بذل العلماء جهوداً كثيرة ، لمقاومة العامية ، وإضعاف خطرها وتقليل عدواها ؛ فدأبوا على التأليف فى اللغة ، وبيان صحيحها وسقيمها ، والإرشاد إلى الفاظها وأساليبها ، والتنبيه على وسائل إصلاح الملكات والألسنة ، وشرح أسرار قواعد الاعراب ، وحكمة ما وضعوه من أصول فى النحو ؛ فألف ابن قتيبة كتابه « أدب الكاتب » وألف ثعلب كتابه المشهور « فصيح ثعلب » ؛ وألف ابن السكيت كتابه « إصلاح المنطق » ، وألف اللغويون الكثير من الرسائل فى اللغة وألفاظها . واحتذى حذوهم العلماء المتأخرون ، فألف الصولى كتابه « أدب الكتاب » ، وألف ابن خالويه كتاب « ليس فى كلام العرب » الذى بين فيه الألفاظ التى تستعملها الناس ولم يصح سماعها من العرب ، وألف الحريرى كتابه « درة الغواص فى أوهام الخواص » ، والجواليقى كتابه « التكملة فيما يلحن فيه العامة » وهو كالذيل لدرة الغواص ، وألف

الصفدى « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » ، والشهاب الخفاجى كتابه « شفاء الغليل »

وكذلك شمر الخلفاء عن ساعد الجد ، وبذلوا الجهود الجبارة ، فى مقاومة العامية ، ومنع عدواها من الانتشار ، مما كان له أكبر الآثار فى المحافظة على العربية ، والتخفيف من أضرار العامية وآثارها السيئة المرذولة

اختلاف العامية باختلاف الأقاليم :

أخذت هذه اللغة العامية ، تتلون بلون الأقليم الذى تعيش فيه ، وتتمكن من ألسنة أبنائه . ومن ثم اختلفت فى الأقاليم الاسلامية اختلافا واضحاً ، فهى فى الشام غيرها فى مصر أو العراق أو فارس ، وهى فى مصر تختلف عن أخواتها فى باقى الأقطار والأمصار ، وهكذا

ويرجع السبب فى اختلاف العامية باختلاف الأقاليم إلى مايلى :

١ — اختلاف الشعوب التى امتزجت بالعرب فى الأقطار الإسلامية ، فكان لكل شعب من هذه الشعوب لغة وطنية خاصة يتكلم بها ، قبل أن يتحدث بالعربية ، فلما تعلم العربية واتخذها لغة له سرى إلى هذه اللغة العربية التى ينطق بها كثير من ألفاظ وأساليب لغته القديمة ، وبتعدد هذه اللغات القديمة التى سرت عدواها إلى الذين دخلوا فى العربية من الموالى ، اختلفت العاميـــة فى الأقاليم اختلافا كبيراً

٢ — تفاوت اختلاط هذه الشعوب بالعرب ، فكلما قل الاختلاط بعدت العامية عن العربيـة ، وكلما قوى هذا الاختلاط زادت المداخلة بينهما . ثم على مرور الأيام تأخذ اللغة العامية فى الاستقلال والتميز حتى تصير كأنهـا أصل فى نفسها

٣ — تفاوت المسافة بين الأقاليم المفتوحة وجزيرة العرب ؛ فكلما قرب الأقليم إلى البلاد العربية قل خطر العامية فيه ، وزاد اتصالها باللغة العربية ؛ ومن ثم نجد قوام اللغة العامية فى العراق والشام ومصر هذه الألفاظ العربية محرفة بعض التحريف ؛ وكلما نأت البلاد شرقا وغربا أو شمالا وجنوبا ، وقل العنصر العربى فيها ، ضعف تأثير العربية فى أهلها ، وسادت الأعجمية بينهم ، كما فى السند وخراسان والنوبة وجنوب بلاد البربر ؛ حتى ليروى أن الرشيد كان إذا خرج إلى خراسان وما وراءها ليتفقد أحوال البلاد اصطحب معه الفراجمة حيث لا تعرف اللغة العربية ، ؛ ولما سار المتنبى فى هذه البلاد فيما بعد ، ورأى العجمة فاشية ، انطلق لسانه بقوله من قصيدة له مشهورة ، يمدح فيها عضد الدولة :

مغانى الشعب طيباً فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

٤ — عدوى الجوار ، التى تفسد الملكات ، وتسقم الطباع ، وتحيف على الألسنة ، ولذلك نجد العامية فى العراق تكثر فيها الألفاظ الفارسية ، وهى فى الشام تخالطها الألفاظ الرومية ، وفى مصر الألفاظ القبطية ، وفى تونس والقيروان الألفاظ البربرية .

* * *

وهكذا نجد العامية تختلف اختلافا واضحا باختلاف الأقاليم ، فهى فى إقليم غيرها فى إقليم آخر ؛ ونجد لغة التخاطب فى البلاد النائية كفارس وخراسان والسند والنوبة هى اللغة الأعجمية الوطنية ، وكان بعض الخاصة فى هذه البلاد يتعلمون العربية ، ويحاولون إرغام ألسنتهم على التحدث بها

أما جزيرة العرب فمن عاش فى وسطها بعيداً عن مخالطة الفرس فى ريف

العراق ، أو الروم فى مشارف الشام ، أو الهند فى البحرين ، أو القبط على حدود مصر ، فقد أمن لوثة الألسنة ، وضعف الملكات ، ومن هؤلاء قبائل قريش وثقيف وهذيل وكنانة وغطفان وأسد وتميم ؛ الذين هم أفصح العرب لساناً ، وأسلمهم بياناً ، وأصرحهم لغة ، لبعدهم عن المخالطة . . والقبائل الأخرى التى عاشت على حدود الجزيرة العربية خالط ألسنتها شىء من الفساد وإن كان يسيراً ، فاللخميون وقضاعة وغسان عاشروا الروم ، وعبد القيس وأزد عمان خالطوا الهند فى البحرين ؛ وجذام جاوروا أهل مصر من القبط ، وتغلب والنمر كانوا بين دجلة والفرات مجاورين لليونان ، وبكر عاشروا الفرس وداخلوهم ، وأهل اليمن ، خالطوا السودان والأحباش وسواهم ؛ فكانت لغتهم غير نقية لأثر الجوار . . ومهما كان فقد ظلت الفصحى هى لغة تخاطب العرب فى جزيرتهم إلى نحو أواسط القرن الرابع الهجرى . .

ويقول البشارى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » يصف ألسنة البلاد أيام استيلاء العباسيين على الخلافة : « إن لسان أهل جزيرة العرب هو العربية الفصحى ، إلا بصحار ، فأن نداءهم وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللسان عربى ، وبلاد العراق لغتها عربية والذين نزلوا بها من العرب أكثر ممن نزلوا بأى إقليم آخر ، وكذلك قال عن الشام ، أما مصر فذكر أن الفاتحين أقاموا بالمدن الكبرى وكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً ، وفى أواخر العصر الأموى انتقل إليها كثير من قبائل العرب ، فتغلب على الناس الإسلام واللسان العربى . وبلاد المغرب لم يكثر بها العنصر العربى ، فكان اللسان البربرى هو الغالب ؛ أما إقليم المشرق وهو خراسان وما وراء النهر وكذلك ما بعده شمالا كالديلم أو جنوبا كفارس وبلاد النوبة ، فلم يتغلب اللسان العربي على أهلها ، وإن كان الإسلام قد شملهم .

النثر العباسى

نهض النثر فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين نهضة طيبة ، لم يبلغها قبل ذلك فى عصر من العصور . فقد رقت الأساليب ، وعذبت الألفاظ ، وعمقت المعانى وسمت الأخيلة ، وتعددت الأغراض ، وانسقت الأفكار . وذلك كله بما تهيأ للعباسيين من حضارة ومدنية ، وتعدد فى صور الحياة ، ومظاهر العيش . وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف الأجنبية .

وسنتحدث بالتفصيل عن كل لون من ألوان النثر فى هذا العصر ، مبينين العوامل التى أثرت فيه ، والظواهر التى جدت عليه .

الخطابة

نماذجها:

— ١ —

خطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار » نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم فى الظلم ، ويتهورون بكم فى مداحض الزلق ، يطأون به حرم الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماؤكم غدا ؟ يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » . إذاً يقول الله عز وجل : « لكل ضعف ولكن لاتعلمون » أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم

الإقالة، وعاد بفضله على نقصكم، وبحلمه على جهلكم. فليفرغ روعكم[1]، ولتطمئن بكم داركم، ولتعظكم مصارع أولئكم، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا».

— ٢ —

وخطب سليمان بن على عم أبى العباس، فقال.

«ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون. إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين» قضاء مبرم، وقول فصل، وما هو بالهزل، الحمد لله الذى صدق عبده، وأنجز وعده، وبعدا للقوم الظالمين، الذين اتخذوا الكعبة غرضا[2] والفىء إرثاً، والدين هزواً، وجعلوا القرآن عضين[3]، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فكأين ترى من بئر معطلة وقصر مشيد[4] ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب، واضطهدوا العترة، ونبذوا السنة، واعتدوا واستكبروا، وخاب كل جبار عنيد، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً»

— ٣ —

وخطب أبو جعفر المنصور يوم جمعة فقال:

«أحمد الله وأستعينه، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أيها الناس: اتقوا — فقام إليه رجل. فقال. أذكرك من ذكرتنا به

---

(١) يقال أفرغ روعه: أى خلا قلبه من الهم وعلى هذا يكون معنى أفرغ خلا، ومعنى الروع القلب. أما قولهم: أفرغ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف

(٢) إشارة إلى ما نال الكعبة من بنى أمية من هدم وتدمير فى فتنة الزبير

(٣) العضة: الفرقة، وجمعها عضون، والعضه (بالهاء): الكذب وجمعه عضون أيضا فمعنى جعلوا القرآن عضين: جعلوه أجزاء فقال بعضهم انه شعر، وقال آخرون هو سحر وقال غيرهم كهانة. وقيل جعلوه كذبا

(٤) المشيد: المطلى بالشيد وهو الجص، والمشيد (كمكرم): المطول

وأنت في ذكره يا أمير المؤمنين . فقال أبو جعفر : سمعا وطاعة لمن سمع عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه ، فقد أخذني العزة بالإثم فقد ضلالت إذاً وما أنا من المهتدين . ثم التفت إلى الرجل وقال : وأما أنت يا فاتكها فوالله ما الله أردت بها ، ولكن ليقال قام فلان فقال فموقب فصبر ، وأهون بها لو كانت العقوبة . وأنذركم أيها الناس أنفسها ، فإن الموعظة الحسنة علمينا نزلت وفينا نبعث . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة فقال : رحم الله امرأ نظر في دنياه لآخرته فمشى القصد ، وجانب الممتر .

ثم أخذ بقائم سيفه وقال : إن بكم داء هذا شفاؤه وأنا زعيم لكم بشفائه . فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به ، فما بعد الوعيد إلا الإيقاع ، وإنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله .

— ٤ —

وخطب أبو جعفر المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني فقال :

« أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسرعوا نبش الأثنة ، فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده ، وفلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وأبداه الله لإمامه بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه .

إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص ، أجززناه خبيء هذا القميص ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم نمنعنا رعية الحق له ، من إقامة الحق عليه »

— ٥ —

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه فقال :

« أي بني ، إني مؤد حق الله في تأديبك ، فأد إلى حق الله في الاستماع

مني ، أي بني . كف الأذى ، وارفض البذاء[1] واستغن عن الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يابني أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تجني عليك » .

— ٦ —

وخطب المأمون خطبة الجمعة فقال :

« الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون : أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جد بكم[2] ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا ، وأعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستدلوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يتركم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه الجديدان

(١) البذاء : السفه والافحاش في المنطق .

(٢) الجد في الامر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجدك لا تفعل » بكسر الجيم التيخلاف بالحقيقة وبالفتح استحلاف بالبخت ، وإذا قيل « وجدك لا تفعل » فتح لا غير

الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها ، فيالها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وتؤديه منيته إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصر به عن طاعة ربه غفلة ، إنه سميع الدعاء ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير .

— ٧ —

وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تيسر لقتال الخوارج فقال : « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشروا وتمردوا ، وشقوا العصا ،[1] وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا فى الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون ، وعدتكم التى بها تستظهرون ، فانه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة التى أمركم الله بلباسها ، غضوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدما على بصائركم ،

---

(١) أصل العصا الاجتماع والائتلاف وشقوا العصا أى شقوا الاجتماع والائتلاف وفرقوا الجماعة وأصل ذلك أن الحاديين يكونان فى رفقة فاذا فرقهم الطريق شقت العصا التى معها فاخذ هذا نصفها وهذا نصفها وهو يضرب لكل فرقة .

ناريين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله، فإنه يقول « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » أيدكم الله بعز الصبر، وواليكم بالحياطة والنصر »

— ٨ —

هوى بين المأمون وابراهيم بن المهدى .

لما ظفر المأمون بعمه ابراهيم بن المهدى [1] أمر بإدخاله عليه ، فجيء به يحجل فى قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا ابراهيم ، فقال له إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين ، ولى الثأر محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم أنشأ يقول :

ذنبى إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى ... من الكرام فكنه

فأطرق المأمون مليا ثم رفع رأسه فقال : إنى شاورت أبا اسحق والعباس فى قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما :

---

(١) لما عقد المأمون ولاية العهد لعلى الرضا العلوى أنكر العباسيون عليه ذلك وخلعوه من الخلافة وبايعوا بها عمه ابراهيم بن المهدى فلجأ إليه المأمون فهرب وتوارى ولكن المأمون ظفر به

بدأنا له بإحسان ونحن نستأمره فيه ، فإن غير فالله يغير ما به ، فقال : أما أن يكونا قد نصحاك فى عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله ، ثم استعبر باكياً فقال له المأمون . ما يبكيك ؟ قال : جذلا ، إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته فى الأنعام . ثم قال يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمى يبلغ سفك دمى فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغانى عفوه ، ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعفو الله بينهما وهو أكبر مايحاول ، يا ابراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس مالنا فى العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا تثريب عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نسبك مايبلغ الصفح عن زلتك لبلغك ماأملت حسن توصلك ، ولطيف تنصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه ، فقال :

رددت مالى ولم تبخل على به ... وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
فأبت منك — وما كافأتها — بيد ... هما الحياتان من وفر ومن عدم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدمى
ما كان ذاك سوى عارية رجعت ... إليك لو لم تهبها كنت لم تلم

— ٩ —

ولما حج المنصور مر بالمدينة فقال للربيع الحاجب : على بجعفر بن محمد ، قتلنى الله إن لم أقتله ، فلما كشف الستر بينه وبينه ، تقرب جعفر وسلم فقال المنصور : لا سلم الله عليك ياعدو الله ، تعمل على الغوائل فى ملكى ، قتلنى الله إن لم أقتلك ، قال يا أمير المؤمنين : إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف ظلم فغفر ، وأنت على إرث منهم ، وأحق

من تأمى بهم ، فنكس أبو جعفر رأسه مليا ثم رفعه وقال لجعفر : إلى أباعبدالله فأنت القريب القرابة وذو الرحم الواشجة [1] السليم الناحية ، القليل الغائلة ، ثم صافحه بيمينه وعانقه بشماله وأجلسه معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله ، ثم قال : يا ربيع عجل لأبى عبدالله كسوته وجائزته وإذنه

— ١٠ —

ودعا المنصور بالربيع بن يونس حاجبه ووزيره فقال له : سلنى ما تريد فقد شككت حتى أنطفت ، وخففت حتى ثقلت ، وقللت حتى أكثرت ، فقال: والله ياأمير المؤمنين ما أرهب بخلك ، ولا أستقصر عمرك ، ولا أستصغر فضلك ، ولا أغتنم مالك ، وإن يومى بفضلك على أحسن من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحسن من يومى ، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد ، قال : صدقت ، على بهذا منك أحلك هذا المحل ، فسلنى ماشئت ، قال : أسألك أن تقرب عبدك الفضل [2] وتؤثره وتحببه ، قال : يا ربيع إن الحب ليس بمال يوهب ، ولا رتبة تبذل ، وإنما تؤكده الأسباب ، قال فاجعل لى طريقا إليه بالتفضل عليه ، قال : صدقت وقد وصلته بألف ألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عمومتى ، لتعلم ماله عندى ، فيكون منه ما يستدعى به محبتى ، ثم قال : فكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال : لأنها مفتاح لكل خير ومغلاق لكل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه . قال صدقت.

— ١١ —

دخل معن بن زائدة الشيبانى على المنصور وقد أسن فقارب فى خطوه ،

(١) المشتبكة لشدة القرابة .

(٢) هو ابنه الفضل بن الربيع وقد وزر للرشيد بعد البرامكة ولابنه الامين . وتوفى بمكة الربيع .

فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يامعن . قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين قال : وإنك لجلد . قال : على أعدائك ياأمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية قال هى لك ياأمير المؤمنين ، قال فأى الدولتين أحب إليك ؟ هذه أم دولة بنى أمية ، قال : ذلك إليك ياأمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

من أقوال الوعاظ

— ١٢ —

حكى أن الأوزاعى قال : بعث إلى المنصور ، فقال : لم تبطىء عنا ؟ قلت: وما تريد منا ؟ قال : آخذ عنكم وأقتبس منكم ، فقلت له : مهلا فإن عروة بن رويم أخبرنى أن نبى الله ﷺ قال : من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر الله له ذلك ، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة ، مهلا فإن مثلك لاينبغى له أن ينام ، إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية : يجبرون الكسير ، ويسمنون الهزيلة ، ويردون الضالة ، فكيف من يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم ؟ أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول الله ﷺ تدعوك إلى الجنة ، إن رسول الله كانت فى يده جريدة يستاك بها ، فضرب قرن اعرابى ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جباراً مؤيسا مقنطا تكسر قرون أمتك . ألق الجريدة من يدك ، فدعا الأعرابى إلى القصاص من نفسه ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك ، إلى داود عليه السلام (يادواد إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وأوحى إليه : يا داود إذا أتاك الخصمان ، فلا يكونن لأحدهما على صاحبه الفضل فأمحوك من ديوان نبوتى ، واعلم أن توباً

من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، فكيف بمن تقمصه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى الأرض السابعة ، فكيف بمن تقلدها ؟

— ١٣ —

ودخل ابن السماك على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظني . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غداً واقف بين يدى الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار ، فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته ، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال : سبحان الله ! وهل يتخالج أحد شك فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

— ١٤ —

ودخل عليه مرة ، فبينا هو عنده إذ استسقى الرشيد فأتى بقلة ماء ، فقال ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال بنصف ملكى . قال : اشرب هنالك الله ، فلما شربها قال : أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكى . قال ابن السماك : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه .

حال الخطابة

عوامل رقيها :

كان قيام خلافة بنى العباس انقلابا خطيراً هز المشاعر ، وأثار الخواطر ، وهاج النفوس ، وقلب الأوضاع ، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة ، واستدعى تأليف الجماعات ، وقيام الكثير من الدعوات ، وحض الناس على التشيع لبنى هاشم ، وإعلان السخط والانكار على بنى أمية ، وسياستهم الجائرة ، وما اقترفوه من سيئات ، وارتكبوه من منكرات

ولاشك أن حدثا جليلا مثل هذا الحدث ، لابد أن يستعين بالخطابة على جذب القلوب ، وكسب الأنصار ، وتحميس المتشيعين ، وتأجيج نار البغض على الدولة الغابرة ، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظافرة .

وكان من شأن بنى العباس أن يقيموا الدعاة ، ويبثوا الخطباء فى كل مكان ، يعلنون بالحجة الساطعة حقهم فى خلافة المسلمين ، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين

كما كان من شأنهم أن يعنوا عناية بالغة بالمواسم الدينية ، والأعياد الاسلامية فهم يخرجون فى مواكب رائعة ، وجموع حاشدة ، ويسيرون بين الصفوف المرصوصة ، حتى يصلوا إلى المسجد ثم يدخلون فى خشوع ووقار ، وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤمون الناس ويخطبونهم ، ويلقون عليهم بليغ العظات ، ورائع الآيات ، حرصا منهم على الظهور بمظهر الامامة الدينية ، والزعامة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظهر هو الذى تأسس به ملكهم وقامت عليه دولتهم

لذلك كان للخطابة في عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ، ومنزلة كريمة ، وشأن عظيم

وزاد من نهضتها ورقيها في مطالع هذا العصر ماكان عليه مؤسسو الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة الملكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر العي واللكنة والضعف لم يكن قد ظهر بعد في مظهره الشديد .

وقد آزر الملكات ماكانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ، يروى [1] أن بشر بن المعتمر مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسبا ، وأحسن في الاسماع ، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ، وإياك والتوعر ، فان التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .. الخ

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء يعيشون في البادية ، حيث

---

(١) ١٢٦ / ١ البيان والتبين للجاحظ — الطبعة الثانية — نشر التجارية .

الفصاحة واللسن والبيان وقوة الحجة وشدة المعارضة ، وقد كثر وفودهم على الخلفاء للاستمناح والشكوى والاستعطاف وغير ذلك

فلا عجب إذن أن تنهض الخطابة وتزدهر ، ويعلو شأنها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المفوهون

دواعيها ومرضوعاتها :

وقد تعددت دواعي الخطابة في عصر نفوذ الخلفاء ، وتنوعت مظاهرها ، وكثرت ألوانها :

١ — فقد كانت الحاجة ماسة إليها في تثبيت الملك ، ودعم الدولة ، وتوطيد أركان الخلافة ، وإقناع الناس بأحقية بني العباس لها ، أو في مجادلة الخصوم ، وتهديد المعارضين ، والتشنيع على بني أمية ، بما قارفوا من أخطاء ، واجترحوا من مساوىء ، وفي إثارة النفوس ، وكسب القلوب ، وتحميس الجنود ، والتبشير بفتح ، والتهنئة بنصر ونحو ذلك

٢ — كما اتخذوها أداة للوعظ ، وتذكير الناس بالآخرة ، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومتاعها ، وذلك في المحافل العامة ، والمواسم الجامعة ، والأعياد الدينية . وجعلها القصاص في قصصهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتاع النفوس بذكر سير الأولين وتاريخ الماضين . ومن أشهر القصاص موسى بن سيار الإسوارى ، وأبو على الإسوارى ، وكان يقص في فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم في قصصه . وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، ثم قص بعده أبو العباس الضرير ولم يدرك في القصاص مثله ؛ وصالح المرى ، وكان صحيح الكلام ، رقيق المجلس ، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بيانا لم يحتسبه ومذهبا لم يكن يدانيه : « هذا ليس قاصا هذا نذير »

٣ — كما كانت لسان الوفود الذى يفدون على دار الخلافة، تأييداً لسياسة، أو إظهاراً لمحبة، أو طلباً لحاجة أو شكاية من مظلمة.

٤ — ومما يقرب من الخطابة فى روعة أسلوبها، وشدة تأثيرها، وسمو بيانها، الحوار الذى كان يدور بين البلغاء والفصحاء، من خاصة القوم، ورجال الدولة . . . وقد مرت ألوان من هذا الحوار.

خصائصها :

وقد امتازت الخطابة بجمال أسلوبها، وفخامة ألفاظها، وبعدها عن الحوشية والغرابة وعن الابتذال والإسفاف.

كما تمتاز بقوة تأثيرها، وروعة تصويرها لاصطباغها بصبغة الدين وتأثرها بأسلوب القرآن الكريم واعتمادها على الكثير من آياته والاقتباس من عظاته والاستشهاد بكلام الرسول. ويكثر فيها أسلوب الحجاج، ومعانى الوعد والوعيد والتسفيه والتهديد، والامتنان بالنعمة، والشكر على كريم الهمة، وجليل المودة على أن الحضارة التى غرقوا فيها قد أكسبتها غزارة فى المعانى ووفرة فى المادة ورقة فى الأساليب، ودماثة فى الألفاظ، مما ضاعف تأثيرها وزاد فى بهائها ورونقها.

أشهر الخطباء :

وقد نبغ فى هذا العصر أعلام من الخطباء المصاقع وفحول من البلغاء المقاول، ممن نشأوا نشأة عربية قوية، وورثوا ملكات البلاغة والخطابة من أصولهم العربية، أو اكتسبوها بالتأدب والتعلم والدرس والحفظ.

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع، والشأو البعيد، من أمثال

بنى العباس وبنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وخلفاء القواد من العرب ، ونابغى الناشئين من الفرس والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار والقصص والأسمار واللغة والأدب والنقد . . ومن ولاة الدولة وخصومها ، من خوارج وعلويين وشعوبيين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمونهم فى الصلاة ، واستمر ذلك بعد هذا العصر إلى الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ ، والذى كان آخر خليفة عباسى خطب على المنبر ... ويصف البحترى فى رائية بايعة له خروج المتوكل لصلاة عيد الفطر وإمامته للناس ، وخطبته فيهم ، فيقول فيما يقول :

أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المنير وتخبر
ووقفت فى برد النبى مذكراً بالله تنـــذر تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والأمين والمأمون .

ومن الأمراء : داود بن على المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخواه عبد الله وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبدالله ؛ ومنهم : سليمان بن على ، وابنه جعفر وبنوه : سليمان وداود وأيوب . . ممن يصفهم الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » فيقول : « وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء فى إصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ؛ والنفوس الشريفة ، والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يجلون عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك »[1]

---

(١) البيان والتبيين الجزء الاول ص ٢٦٥

ويقول الجاحظ فى داود بن على « كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول ، ويقال إنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير معروف محفوظ [١] »

ومن خطباء العلويين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن وأبناؤه : محمد وابراهيم وموسى

ومن خطباء بنى طالب : عبد الله بن معاوية

ومن الوزراء : الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذو الرياستين وزير المأمون وصهره ، وجعفر البرمكى

ومن الخطباء سهل بن هارون خازن بيت الحكمة المأمون [٢] ، وطاهر ابن الحسين ، وعبد الله ابن طاهر — ومنهم : العتابى الذى يقول فيه الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابى » ومنهم : خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة المتوفى عام ١٧٠ هـ الذى يقول فيه الراجز :

إذ غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

وغيرهم من فحول الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والفصاحة

---

(١) ٢٦٣ / ١ البيان والتبين

(٢) راجع كلام الجاحظ عليه فى البيان والتبين ٥٩ / ١

الكتابة فى هذا العصر

نماذجها :

— ١ —

كتب عبد الله بن المقفع يعزى :

أما بعد: فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرهما ويقضى فيهما مايشاء، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع أحد من خلقه فى خلد الدنيا ، ووقت لكل شىء ميقات أجل ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ؛ فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت ، لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد ، نسأل الله خير المنقلب . و بلغنى وفاة فلان، فكانت وفاته من المصائب العظام، التى يحتسب ثوابها من ربنا ، الذى إليه منقلبنا ومعادنا ، وعليه ثوابنا ، فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله ، فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة ، وجعلهم من المهتدين .

— ٢ —

وله فى وصف أحد إخوانه :

« إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ماعظم فى عينى صغر الدنيا فى عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يتشهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ؛ فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأيا ولا بدناً ، وكان لا يأشر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى فيما

علم ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذ القائلين ، وكان يرى ضعيفا مستضعفا ، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مراء ، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضيا فهما ، وشهوداً عدولا ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعه إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحبا إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يقبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا ينشهى ، وكان لا ينقم على الولى ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها — ولن تطيق — ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

— ٣ —

وكتب المنصور إلى النفس الزكية :

أما بعد : فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » . ولك على عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ﷺ إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ؛ وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ؛ وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشىء كان منه أبدا ، فإن أردت أن

تثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به

— ٤ —

وكتب يحيى بن خالد البرمكى وهو فى الحبس [١] إلى هرون الرشيد :

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، من عبد أساءت [٢] ذنوبه ، وأوبقته [٣] عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، فحل فى الضيق بعد السعة ، وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، فقد عاين الموت ، وشارف الفوت ، جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على ما فات من قربك ، لا على شىء من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدى عارية والعارية مردودة .

وأما ما أصبت به من ولدى فبذنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ فى أمره ، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سنى ، وضعف قوتى ، وارحم شيبتى ، وهب لى رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الإقالة ، وإنما أعتذر اليك باقرار ما يجب به الاقرار حتى ترضى عنى ، فاذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى مالا يتعاظمك بعده

---

(١) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها ، فعزم على نكبتهم . حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ فقتل جعفر بن يحيى ليلا فى طريقه . وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .

(٢) أساءته : خذلته ، فاستعلته من عليا ، مرتبته . أو أساءته إلى السجن والعذاب .

(٣) أوبقته : أهلكته .

ذنب أن تغفره ، مد الله لى فى عمرك ، وجعل يومى قبل يومك ؛ وكتب اليه بهذه الأبيات :

قل للخليفة ذى الصنيـ ـعة والعطـايا الفاشـية
وابن الخلائف من قريش والملـوك العاليـة
إن البرامكة الذيـ ـن رموا لديك بداهية
صـفر الوجوه عليهم خلع المـذلة بادية
فكأنهم ثمـا بهم أعجاز نخـل خاوية
عمتهم لك سـخطة لم تبق منهم باقيـة
بعـد الامارة والوزا رة والأمور السـامية
ومنازل كانت لهـم فوق المنـازل عاليـة
أضحوا وجل منـاهم منـك الرضا والعافيـة
يا من يود لى الردى يكفيك منى ما بيـه
يكفيك ما أبصرت من ذلى وذل مكانيـه
وبكاء فاطمـة الكئيـ ـبة والمدامع جارية
ومقالهـا بتوجع يا سوءتى وشقائيه !
من لى وقد غضب الزما ن على جميع رجاليه
يا لهف نفسى لهفها ما للزمان ومالیه
يا عطفة الملك الرضا عودى علينا ثانيـة

فلم يكن له جواب من الرشيد .

— ٥ —

وكتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر

وما بينهما (٢٠٦ هـ) عهداً طويلا حكما ،ضمنه كثيراً من درر النصائح الغالية، وقد شاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرىء عليه ، فقال : مابقى أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال ، ومنه :

وتفقد أمور الجند،وأدر عليهم أرزاقهم ،ووسع عليهم فى معاشهم، ليذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحاً ، وحسب ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته .

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال فى الأرض ؛ وباقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل فى القضاء .

واشتد فى أمر الله ، وتورع عن النطف[1] ،وامض لاقامة الحدود ، وأقلل العجلة ، وابعد من الضرر والقلق ،واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك، ويقر حدك وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك ، واسدد فى منطقك ، وانصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وابلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا

---

(١) النطف : العيب والشر والفساد .

محاماة ولا لوم لائم ، وتثبت وتأن وراقب ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر وتواضع لربك ، وارأف بجميع الرعية ، وبسط الحق على نفسك ، ولا تسرعن الى سفك دم — فان الدماء من الله بمكان عظيم — انتهاكها بغير حقها .

وانظر هذا الخراج الذى قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتا وغيظا ، ولأهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئا عن شريف لشرفه ، ولا عن غنى لغناه ، ولا تكلفن أمرا فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على مر الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضاء العامة .

واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم فى كور [1] عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة ، والعفاف ، ووسع عليهم فى الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسندت وأسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوثة فى عملك ، واحترزت النصحة من رعيتك ، وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كورك ، فكثر خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى

---

(١) كور جمع كورة وهى الصقع

العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلهـــا ذا عدل وقوة وآلة وعدة ، فنافس فى هذا ولا تقدم عليه شيئا ، تحمد مغبة أمرك إن شاء الله.

— ٦ —

وكتب أحمد بن يوسف يهنىء بمولود :

أما بعد ، فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجاً ، أعقد فيـه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقك ، وعرفنى من جميل رأيك . فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سرياً ، أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سرورى بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ؛ فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقياً ، يشد عضدك ويكثر عددك ، ويقر عينك .

— ٧ —

وكتب فى الذم :

أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أوعر ، من طريقه إليك. ولا مستودعاً أقل زكاء ولا أبعد ثمرة خير ، من مكانه عندك ؛ لأنه يحصل منك فى حسب دنى ، ولسان بذى ؛ ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عنـدك مهجور ، وإنما غايتك فى المعروف أن تحرزه . وفى وليه أن تكفر به

— ٨ —

وقال أحمد بن يوسف : دخلت على المأمون وفى يده كتاب وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعد فيه بصره ويصوبه ، فالتفت إلى وقد لحظنى فى أثناء قراءته للكتاب ، فقال : يا أحمد ، أراك متفكرا فيما تراه منى ؟ قلت : نعم ، وقى الله أمير المؤمنين من المكاره ، وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه

إن شاء الله ؛ ولكني قرأت كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ، فإني سمعته يقول : « البلاغة التباعد من الإطالة ، والتقرب من البغية ؛ والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » ، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة ، حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة ورمى به إلي ، فقرأته فإذا فيه:

كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده ، في الانقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت [1] معه أمورهم

فلما قرأته قال : إن استحسانى إياه بعثني أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من جل محله في صناعته.

— ٩ —

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال:

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة ، إما تقصير في عملك دعاك للاخلال بالحزم ، والتفريط في الواجب ، وإما مظاهرة لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محلة النكر بك ، وموجب العقوبة عليك ، لولا مايلتمك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الإعذار والإنذار . وعلى حسب ما أقلت من عظيم العثرة . يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة ، والسلام »

---

(١) الالتياث : الاختلاط

— ١٠ —

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وقد تنكر له وتلون عليه :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ؛ وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وان امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الاغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى — أيدك الله — لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأنت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ؛ حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والإنعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم — أيدك الله — أن شين غضبك على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم .. والسلام .

— ١١ —

ومن رسائل أبي اسحق الصولي على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه ، وهي من الرسائل التي أغنت عن الجيوش :

أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود ، وعدل به من زيغ ، ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقع بحسم الداء غيرها :

أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيدا ؛ فإن لم يغن أغنت عزائمه

— ١٢ —

وكتب إلى ابن الزيات يستعطفه:

كتبت وقد بلغت المدية المحز ، وعدت الأيام بك على بعد عدواى بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها ، وتكف عند أذاتها . فصرت أضر على منها ، فكف الصديق عن نصرتي خوفاً منك ، وبادر إلى العدو تقرباً إليك

— ١٣ —

وقال أبو يوسف في كتاب « الخراج » الذي كتبه للرشيد:

وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ، يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح ، أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به ، وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به والى

الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بغيره ، وإن أحالت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تمادوا على أهل الخراج واجترءوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لم يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعمد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك ، واحتجان شىء من الفىء ، أو خبث طعمته ، أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك ، أو تشركه فى شىء من أمرك . بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فان دعوته مجابة .

وصف الكتابة

يراد بالكتابة هنا هذا الفن البليغ من النثر الذى أداته القلم وعماده التجويد والتهذيب ، واصطناع الصور الأدبية الرائعة التى تحدث فى النفس ارتياحا وإعجابا ، وتبعث فيها نشوة وهزة . وهو ما نسميه الكتابة الانشائية أو الفنية أو الأدبية ، التى يتأنق فيها الكتاب ، ويعنى بها الأدباء ، ويدرسها النقاد والعلماء ، ويحفظها ويتأدب بها الشداة فى الأدب ، لأنها مظهر من مظاهر البلاغة والبيان ، وفيها متعة للنفس ، وغذاء للروح .

ألوان الكتابة وصور أغراضها :

والكتابة الفنية فى هذا العصر ألوان عدة :

— ١ —

فمنها الرسائل الاخوانية التى يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض فى تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاعة أو عتاب ، وما إلى ذلك ، وهى أوسع ميداناً ،

وأكثر افتنانا ، وأعذب بيانا ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدراً ، وأقرب إلى الأبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته، وأخلاق الناس ومنازعهم.

— ٢ —

ومنها الرسائل الأدبية المطولة التى يكتبها البلغاء، يسجلون فيها خواطرهم، ويدونون آراءهم فيما يعن لهم من شئون الاجتماع أو الفكر أو الأدب، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها فى الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية . ونحو ذلك ، مما يتجلى فى السير والأسمار والخرافات والأخبار والقصص ، كرسائل الحميس التى كان يكتبها البلغاء فى هذا العصر لتقرأ فى خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرسائل ابن المقفع ، وككتب الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والتربيع والتدوير والحاسد والمحسود ومناقب الترك .

فضلا عن اصطناع الكتابة فى فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة ونحو ذلك من الموضوعات التى كانت وقفاً على الشعر .

— ٣ —

ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التى تصدر من ديوان الرسائل بنوعيه (الخاتم والتوقيع)، فى شأن من شئون الدولة ؛ وكانت الكتابة فى هذا الديوان بخلافها فى الدواوين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت تعتمد على التأنق فى الأسلوب والجمال فى العبارة والبراعة فى إظهار المعنى بصورة واضحة مقبولة .

ونحن نعلم أن المدنية ازدهرت فى عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغاً، وأعمال الدولة اتسعت اتساعا ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ، ونفوذ الفرس فى

الدولة ، وسعة سلطان الخلافة فى المشرق والمغرب ، فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التى تقوم بانجاز الأعمال المتعددة ، وخصوا كل ديوان منها بعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم ممن نقلوا النظام الكسروى فى الادارة وطبقوه فى دولة الخلافة .

ومن الدواوين التى كانت موجودة : ديوان الخراج والنفقات ، وديوان المظالم والشرطة ، وديوان البريد ، وديوان الضياع والاقطاعات ، وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المعاون ، وديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذى يقلد منصب الوزارة تسند إليه إدارة تلك الدواوين كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القواد فى جيش الخلافة ، وقد يتصرف فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فاذا كان الوزير أثيراً لدى الخليفة ، موثوقا به الثقة كلها ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأى ، ألقى إليه الخليفة مقاليد جميع الأمور ، ووكل إليه إدارة جميع الدواوين ، فيصبح المشرف على جميع أعمال الدولة ، والمتصرف فى شئون الحرب ، كالفضل ابن سهل ، الذى وكل إليه المأمون ذلك كله ، ثقة به ، بعد أن انتصر جيش الخلافة بقيادة طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل وحسن سياسته ، ولقبه الخليفة «ذا الرياستين» وكان له علم على سنان ذي شعبتين ، وكتب على سيفه من ناحية رياسة التدبير ، ومن الأخرى رياسة الحـــرب . . ولخطر منصب الوزير وجلاله اشترط فيمن يتقلده أن يكون عالماً أديباً بليغاً أريباً مصيباً داهية محنكا ، قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، يروى أن المأمون كتب فى اختيار وزير : « إنى التمست لأمورى رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة فى خلائقه ،

وإستقامة فى طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن تلمهمات الأمور نهض فيها بيسكنته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه صبر ، وإن ابتلى بالاساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه[1]

والذين تسنموا هذا المنصب الخطير[2] كانوا من صفوة الناس وأعلاهم أدبا وخلقاً وكفاية ودراية وذكاء وفهماً : كأبى سلمة الخلال وزير السفاح ، وأبى أيوب الموريانى وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدى ، ويحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه الحسن بن سهل وأحمد ابن يوسف وسواهم ، ممن كانوا درة فى جبين الدهر ، وغرة فى وجه الخلافة ، وشجعوا العلوم والآداب ، وأيدوا حركة الترجمة ورعوها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر ، يعينه على أعماله ، ولولاة الأقاليم كذلك كتاب ، فابن المقفع مثلا كان يكتب لوالى كرمان داود بن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والكتاب ممن نقلوا من أصول فارسية ، وكان الوزير قلما يختار لمنصبه إلا إذا كان من أفذاذ الكتاب .

---

(١) ٢١ الاحكام السلطانية

(٢) قال ابن خلكان : اختلف أرباب اللغة فى اشتقاق كلمة الوزارة على قولين : أحدهما : أنها من الوزر وهو الحمل فكان الوزير قد حمل عن السلطان الثقل وهذا قول ابن قتيبة والثانى أنها من الوزر بفتح الواو والزاى وهو الجبل الذى يعتصم به لينجى بمن الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذى يعتمد عليه الخليفة والسلطان ويلتجىء إلى رأيه وهو قول أبى اسحاق الزجاج «١/٢٢٩ وفيات الاعيان »

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ليست عربية بل هى ماخوذة من اللغة الفهلوية من كلمة «فيشيرا» ومعناها الامر أو التقرير

ولم يكن لقب الوزير موجوداً فى الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل الخلافة العباسية وإن كان يسمى قبل ذلك كاتبا ومشيراً

وقد ألفت في أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة منها : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولى ، وكتاب الكتاب لابن درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، وكتاب الأحكام السلطانية ، وسواها ، وألف القلقشندى المصرى أخيراً كتابه الضخم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ... وحول ثقافة الكاتب وشخصيته يقول أبان بن عبد الحميد اللاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد مستميحاً عطفه وفضله ، راجياً أن يكون فى حاشيته ، وقائماً بخدمته (١) :

أنا من بغية الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الري ... شة إما تكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة واتقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للـ ... ـلم بقول منور الأقحاح
وظريف الحديث فى كل فن ... وبصير بترهات المسلاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد ... لغدو دميت أو لرواح
لست بالناسك المشمر ثوبيـ ... ـه ولا الماجن الخليع الوقاح

وهكذا اتسعت الدواوين باتساع الأعمال وتنوعت بتنوع مطالب الدولة ، بيد أن الكتابة — فيما عدا ديوان الرسائل — كانت لا تتجاوز ضبط الجباية وحساب الايراد والنفقات والمرتبات ومحاسبة الولاة وتصريف الأمور ، مما

---

(١) يروى أن أبانا لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاه فلما دخل عليه أتاه بكتاب فرمى به اليه وقال له : أجب عنه ، فاجاب أبان بما فى نفسه وأحسن ، فامر له بالف ألف درهم ، وكان يرى أول داخل عليه وآخر خارج من عنده . فحسده أبو نواس فهجاه فاقصاه الفضل عنه

لا يخرج عن التسجيل فى الدفاتر ، والعداد والاحصاء ، وليس فى ذلك كله مجال لبراعة أو بيان وإفصاح ، ولا يهتم الباحث الأدبى بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الاحاطة بها وفهمها

فأما الكتابة فى ديوان الرسائل فهى التى تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، وترد إليه ؛ ولذلك تولاه فحول البيان ، وأعلام البلاغة ، وحذاق الأدب المحيطون بشتى الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلا أعلى فى الفصاحة والجمال وتمثيل العواطف والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير

* * *

هذه هى الكتابة الفنية التى عرفت فى هذا العصر .

أما الكتابة العلمية ، التى هى كتابة التأليف والتدوين ، والتى تحفل بالاصطلاحات ، ويراعى فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتؤدى إلى النتائج ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتى تعتمد أكثر ما تعتمد على الحقائق ، لا على التهويل والانطلاق مع الخيال والانسياق وراء العاطفة :

نقول : أما هذه الكتابة فلم يكن لها كبير خطر فى هذا العصر ، لأن العلوم كانت لا تزال موضوعاتها مختلطة ، وكانت حينذاك فى بداية التدوين .. حاشا كتب الأدب التى كتبت بلغة شبيهة بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب التى ترجمت فى هذا العصر فى مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ السمت التأليفى الذى ظهر بوضوح بعد عصر نفوذ الخلفاء .

خصائصها :

— ١ —

وقد بلغت الكتابة الفنية فى هذا العصر من الرقى والسمو ما لم تبلغه فى أى عصر من العصور . وذلك لظهور آثار الثقافات الأدبية والفكرية ، ولكثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب والآداب المترجمة ، ويروى أن رجلا سأل ابن المقفع : ما الذى مكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع ، يعنى به الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثاً على النهوض بالكتابة ، داعيا إلى ارتفاع شأنها وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوى بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزاً على تجويدها والتأنق فى أساليبها .

ولئن كانت الكتابة فى آخر عصر بنى أمية ، قد صارت صناعة عتيدة ، لها أصولها ومناهجها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل وتجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وازدهرت فى عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات ، وأصبحت سلم الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزارة وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبغ فيها فحول لم يجد الدهر بمثلهم فى البلاغة والفصاحة والحذق والبراعة واللطف وشرف الصناعة . حتى بدوا فحول الشعر فى عظمة الجاه ، وسعة النفوذ والسلطان .

— ٢ —

وتمتاز الكتابة الفنية فى هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة فى الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال .. ومن هذه الميزات :

١ — سعة الخيال وطرافته ، وعمق المعانى ودقتها وتنوعها وبعدها وسعتها ، وظهور آثار الثقافات الأصيلة والمترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق فى أدلتها والاقناع بها .

٢ — التأنق فى الألفاظ وحسن تخيرها والبعد بها عن الحوشية والغرابة

٣ — أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهذيب ، واستعمال المحسنات البديعية والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الاشارة ، وجودة الرصف وجمال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع فى تخير الأساليب ، فى جزالة حيناً ، وعذوبة حيناً آخر . . وقد عمد الكتاب إلى اختراع المقدمات فى أوائل الرسائل المطولة وفى بعض المنشورات والعهود ، وإلى تنويع عبارات البدء والختام فى الرسائل ؛ وكانوا يبالغون فى الايجاز حينا وفى الاطناب حينا آخر ، وفق ما تقتضيه الأحوال والمقامات . وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز ويوصى به ، ولكنه لم يكن السائد فى أسلوب كتابة الرسائل فى هذا العهد ، ويروى عن جعفر البرمكى أنه كان يقول لكتابه : « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا »

٤ — وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أروع ما راقهم منها من تهويل فى الخطاب وتعديد للألقاب ، وإفراط فى استعمال طرفى الإيجاز والاطناب ، وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعانى واختراعها ، والمقدمات التى كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة وبعض عهودهم ومنشوراتهم

— ٣ —

ونلاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكثرون من التهذيب والتنقيح والتجويد ، وتوخى الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذراً من النقد الذى قوى فى هذا العصر . . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب ،

وعبارة ، ويفصلون الفروق بين التراكيب والصيغ ، ويطالبون سواهم بها ، ويحرصون هم عليها ، ويعيبون على من خالفها . يروى أن عاملا لسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها من رسالة : « وأدام كرامتك » ، فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره : « أصلح خطأك وإلا صرفناك عن عملك » ، فأعاد الاعتبار فى أسلوبه فلم يعتد بخطئه ، فعرضه على صديق له ، فقال : إنما كرهت قولك فى صدر الرسالة : « وأدام كرامتك » ، لأن كرامة النساء دقتين ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب ، فوقعت على ظهره : « أحسنت ولا تعد » . . ومن دقتهم فى ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خصوا « أبقاك الله وأمتع بك » بالابن والخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشباههما ، ولقد كتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر رسالة ، وردت فيها كلمة « وأمتع بك » فكتب إليه عبد الله :

أحسنت عما عهدت من أدبك ... أم زلت ملكا فتهت فى كتبك؟
أم قد ترى أن فى ملاطفة الـ ... إخوان نقصا عليك فى أدبك؟
أكان حقا كتاب ذى ثقة ... يكون فى صدره « وأمتع بك »؟
أتعبت كفيك فى مكاتبتى ... حسبك ما قد لقيت من تعبك

فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كيف أخون الإخاء يا أملى ... وكل شىء أنال من سببك
أنكرت شيئا فلست فاعله ... ولن تراه يخط فى كتبك
إن يك جهل أتاك من قبلى ... فقد بفضل على من حسبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل ... يعيش حتى الممات فى أدبك

وكذلك جعلوا « أطال الله بقاءك » أرجح وزنا من قولهم « أبقاك الله

طويلا ، قال ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد [1] « من الألفاظ المرغوب عنها ، والصدور المستوحش منها ، فى كتب السادات والملوك ، على اتفاق المعانى : مثل « أبقاك الله طويلا » وإن كنا نعلم أنه لافرق بين قولهم « أطال الله بقاءك » وبين قولهم « أبقاك الله طويلا » ولكن جعلوا هذا أرجح وزنا وأنبه قدراً فى المخاطبة ، كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلا فى كتب الفضلاء والأدباء من « جعلت فداك » على اشتراك معناه ، واحتمال أن يكون فداءه من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداءه من الشر .. على أن كتاب العسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم ، وجعلوها هجيراهم فى مخاطبة الشريف والوضيع »

ويروى أن الربيع قال : دخلت على الشافعى وهو مريض فقلت له : « قوى الله ضعفك » فقال : لو قوى ضعفى قتلنى ، قلت : والله ما أردت إلا الخير ، قال : أعلم أنك لو شتمتنى ما أردت إلا الخير ، قل : « قوى الله قوتك وضعف الله ضعفك »

وهذه الدقة المأثورة عن الشافعى يؤكدها ما روى عنه أنه قال : « أكره أن تقول : « أعظم الله أجرك فى المصائب » ، لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك

***

أشهر الكتاب :

— ١ —

والكتاب فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

(١) ص ١٧ د ١٨ / ٣ العقد — وراجع فى ذلك الرسالة العذراء لابن المدبر .

١ — فالطبقة الأولى هى التى أدركت الدولتين ، وهى طبقة ابن المقفع ، ويحيى بن زياد الحارثى ، وعمـــارة بن حمزة ، وأبى أيوب الموريانى . ممن كتبوا للمنصور

٢ — والطبقة الثانية طبقة أبى عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود وزيرى المهدى ، ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتبوا المهـــدى والهادى والرشيد

٣ — والطبقة الثالثة طبقـة جعفر بن يحيى ، وأخيه الفضل ، واسماعيل ابن صبيح ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو ابن مسعدة ، واحمد بن أبى خالد الأحول — ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون

والطبقة الرابعة : الطبقة التى ربيت فى عصر المأمون وجمعت بين الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ، وإليها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ، وبدأ أعلامها فحول الشعر فى عظمة الجاه والرياسة ، مثل : الجاحظ ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وابراهيم بن العباس الصولى ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ، وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون

— ٢ —

ويجعل بعض الكاتبين [1] هذه الطبقات طبقتين : الأولى ، رئيسهـــا ابن المقفع ، وطريقته تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخى السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد فى السجع : وقد حد البـلاغة فقال : «هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها» ، وقال لبعض الكتاب : «إياك وتتبع الوحشى من الكلام طمعا فى نيل البـلاغة فإن ذلك هو المعى

(١) ص ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات

لأكبر ، وقال الآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ
سفلة »

والثانية رئيسها الجاحظ ، وطريقته أشبه بالأولى فى سهولة العبارة
وجزالتها ، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة متفاوتة أو مرسلة ، وزيادة
الإطناب فى الألفاظ والجمل والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل ، وتحليل المعنى
واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية

وهؤلاء الكتاب جميعا صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ، قد
ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت كتابتهم
بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعانى ، وحسن
الابتداع فى الأخيلة ، مع الازدواج حينا ، والسجع حينا آخر .. إلى غير ذلك
من الخصائص والميزات التى أفضنا فى شرحها

التوقيعات

التوقيع فن بليغ من فنون النثر ، ولون رائع من ألوان الكتابة . وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير فى أسفل الكتب الواردة إليه ، بإبداء الرأى فيما يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

والتوقيع فى اللغة معان متعددة : جاء فى اللسان : وقع [1] ظنه على الشىء ، قدره وأنزله . والتوقيع الإصابة ، وتنظر الأمر ، وتوهم الشىء . ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقة موقع ، أى أن فيه تأثيراً خفيفاً من الحبال التى تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحى ، أن التوقيع فى أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة

ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون فى آخر الكتاب المرفوع. ووقعت [2] الإبل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الرى ، فكأن الموقع بعد توقيعه قد اطمأن إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع فى الكتاب إلحاق شىء فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من التوقيع الذى هو مخالفة الثانى للأول . قال الأزهرى : توقيع الكاتب فى الكتاب المكتوب أن يجعل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر [3] ظهر البعير . فكأن الموقع فى الكتاب يؤثر فى الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم فى الأدب الفارسى ، ووجد فى الأدب العربى

(١ ، ٢) بتشديد القاف

(٣) الدبر بفتح الدال والباء الفرحة فى ظهر البعير .

منذ عصر صدر الاسلام ، ويروى أن أول توقيع عرف كان لعمر حين كتب إليه سعد بن أبى وقاص يستأذنه فى بناء ، فوقع له عمر : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » . . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية ... ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوى فى عصر نفوذ الخلفاء ، ونبغ فيه كثير من أعلام الكتاب وفحول البلغاء ، وروى منه الكثير كذلك لخلفاء بنى العباس ووزراء دولتهم فى هذا العصر

وكان الكتاب يتنافسون فى إجادته ، ويتبارون فى بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الايجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحياناً مثلا أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثاً مأثوراً عن رسول الله ، أو بيتاً من الشعر

وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون فى التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهما .

نماذج من التوقيعات :

وقع السفاح فى كتاب لأبى جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : إن حلمك أفسد علمك ، وتراخيك أثر فى طاعتك ، فخذ لى منك ، ولك من نفسك .

ووقع المنصور فى كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة .

ووقع لوالى مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد .

ووقع فى قصة فقير : سل الله من رزقه . . ووقع المهدى فى قصة رجل حبس فى دم : ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب .

ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان : داو جرحك لا يتسع .

ووقع فى نكبة جعفر البرمكى : أنبقته الطاعة وحصدته المعصية .

ووقع المأمون فى قصة متظلم من أحمد بن هشام : اكفنى هذا الرجل وإلا كفيتك أمرك .

وقال عمرو بن مسعدة : كتبت كتابا إلى عامل فأطلته ، فأخذه المأمون من بين يدى وكتب : قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت ... وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكى أيضاً

ووقع المأمون فى كتاب لابراهيم بن المهدى : القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله .

ووقع جعفر البرمكى فى قصة محبوس : العدل أوقعه والتوبة تطلقه .

ووقع يحيى البرمكى لمظلوم : طب نفساً فكفى بالله للمظلوم ناصراً .

ووقع طاهر بن الحسين فى قصة مستمنح : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

obeikandl.com

الشعر فى هذا العصر

— ١ —

كان الشعر — ولا يزال — صورة المجتمع فى كل بيئة ، ومرآة الحياة فى كل عصر ، وسجل الأحداث فى كل زمان . ذلك لأنه فيض الخاطر ، ونبع الشعور ، ونبضة الحس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان . ولأن الشعراء أبلغ من الكتاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوبا مع أحوال المجتمع ، وأشد تأثراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا نرى الشعر فى كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة للمجتمع وانعكاساً للآمال والمشاعر ، وتاريخاً صحيحاً لعصره ومصره . فهو فى الجاهلية ديوان العرب الذى يسجل مفاخرهم ، ويدون مآثرهم ، ويصور أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجعة واستقرار ، وبأس ونجدة ، وحماسة وفتوة ، ونحو ذلك من ألوان خلقهم وأحوال عيشهم . وأنت تقرؤه فتجد فى صفحته صورة البادية ، بوعورة مسالكها ، ووعوثة شعابها ، وخشونة هضابها ، وترى فيه الرمال والكثبان ، والرسوم والأطلال ، والأباعر والغزلان ، والصيد والطراد ، أكثر مما ترى أى شىء آخر .

وهو فى ظلال الاسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ، ويستجيب لدواعيها ، وتتحور أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ، وتأثراً ببيانها الحكيم ، وتجاوبا مع ما أتيح للدولة من حظ فى الحضارة ، وما استجد من شئون فى السياسة ، وما طرأ من عمران وعرفان . فتراه قد خاض فى العصبية ، وجال فى السياسة ، وصال فى المدح والهجاء ، وأيد وعارض ،

وجادل وخاصم ، وجد فى ميادين المجـدين ، وتقشف فى محاريب الزاهدين ، وتبتل فى مواطن الغزل والمجون مع المترفين الأباحيين .

ومع هذا فإنه لم يبعد كثيراً عن منهجه الجاهلى ، لأصالة العروبة ، وقرب العهد بالبـداوة ، وقلة الحظ من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالأعاجم ، والترفع عن خلاطهم . فلم تتغـير مناهجه ، أو تتعدد مذاهبه ، أو تتجدد ألوانه ، إلا بمقـدار ماسمح به التغير الطارىء فى مناهج الحيـاة ، وأساليب العيش ، ومظاهر الحضارة .

وهو فى جاهليته وإسلامه أنغام شجية تبدهد الأشجان ، وتذهب العبرات ، وتستثير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتجمل الحياة .

— ٢ —

وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أو محدودة ، وخياله المجنح يحلق فى آفاق الجمال ، فيبنى من الصخر قصرا ، وينبت من القفر زهرا ، ويخلق من الرسوم الدوارس ، شخوصا وأوانس ، ويصور من البعر المتنـــاثر ، لآلىء وجواهر ... فما بالك به فى العصر العباسى ، والحضـارة فى الأوج ، والمدنية فى القمـة ، والطبيعة فى جلوة ، والأرض فى زينة ، والثقافة متنوعة ، والمناظر متجددة ، والعمران فى عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملـكهم (بغداد) فى ديار الأعاجم ، وامتزجوا بهم كل الامتزاج ، واندمجوا فيهم كل الاندماج . وهؤلاء ألوان من الثقـافات ، وأنماط من العيش ، وأنواع من الخلق ، وأشتات من العادات والتقاليـد . . فـكان لهذا كله أثره فى نفوس الشعراء ، كما كان له أثره فى نفوس العرب جميعا ، ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة ما لم يألفه خيالهم من قبل ، فهذه رياض ناضرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر مونقة ، وتلك

مجالس مفاكهة وسمر ، ومجالى منادمة وطرب ، إلى غير ذلك مما يمد الشعر ويغذيه ، ويثيره وينميه ، ويجعله يحلق فى أرحب أفق وأعلى سماء .

وكذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف ، وألصق بالمدنية ، وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدنى إلى مظاهر الحضارة فى قصورهم . ولهذا رأينا الشعر يحلق فى كل أفق ، ويفرد فوق كل فن ؛ فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الطباب ، ويفاكه السمار ؛ ويساجل الأوتار ؛ وينشد الحسن ، ويهتف بالجمال . وهكذا انتقل من الصحارى المجدبة ، والخيام المطنبة ، إلى الرياض والغياض ، والقصور والزهور ، والجداول المترقرقة ، والمروج المنمقة ، ومطارح اللهو والترف والنعيم .

— ٣ —

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تجرح لهاته خشونة الحياة ، ويخنق شدوه لفح الهجير ، حتى إذا أشرقت شمس الربيع ، وهبت نسائمه ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ما شاء فرحا ، وابتدع أفانين الشدو والغناء . وما العصر العباسى إلا ذلك الربيع .

وهكذا يتطور بتطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الانسانية ، فيكون فى الجاهلية أنغام صبى ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرة . وفى الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة ، ثم يستحير شبابه . ويكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فيظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما : عبث شباب ، وأغانى طرب ، ومظاهر ترف ... » (١)

---

(١) الزيات فى تاريخ الأدب العربى ص ٤٧

عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء

كان الخلفاء والأمراء فى عصر نفوذ الدولة العباسية عربا، جرى فى عروقهم دم العروبة، وتأصلت ملكتها، وسحرتهم بلاغتها، ورأوا فى الشعر مجدهم التليد، وفخرهم القديم، فحرصوا على روايته وإحيائه، واهتزت أريحيتهم لسماعه وإنشاده، وخلب أفئدتهم القول الرائع، والبيان الفائق، واستلبت عطاياهم المدح الجيد، والثناء البليغ .. ولهذا قربوا الشعراء، وفرضوا لهم فى بيت المال، وأغدقوا عليهم العطايا والصلات، وأغرقوهم بالمنح والهبات، حتى تجاوزت آمالهم التكسب بالشعر للعيش والكفاف، إلى الثراء الواسع، والغنى السابغ واختزان المال، والأخذ بأكبر نصيب من الرفاهة والبذخ والنعيم. حتى رأيناهم يقتنون الثروات الواسعة، ويساوون الملوك فى المنزلة، ويساوون ذوى اليسار فى نعيم العيش، وترف الحياة، وامتلاك القصور والضياع.

قالوا: إن سلما الخاسر مات عن خمسين ألف دينار، ويحدثنا صاحب الأغانى أنه كان يأتى باب المهدى على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم، ولباسه الخز والوشى، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الثمن، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه.

ومروان بن أبى حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات. وكان أبو نواس محظوظا لا يدرى ما يصل إليه، وكان يتساجل فى الانفاق هو والعباس بن الأحنف وصريع الغوانى.

وكان البحتري مليئاً ، قد فاض كسبه ، وكان يركب في موكب من عبيده (١) .

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لا نكاد نصدقه اليوم عن ثراء الشعراء ، وما كانت تستدره رقاهم السحرية من مال .

ولم يقف الخلفاء والأمراء عند سماع الشعر ، والإرتياح لانشاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصر وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق ، وإلمام .

فهذا المنصور يفجعه الدهر في ابنه جعفر ؛ فتستبد اللوعة بقلبه ، ويشد الحزن عليه منافذ السلوى ، فلا يجد سبيلا للعزاء إلا قصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه ، فيطلب إلى الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع؟

فلا يجد الربيع من يحفظها ، فتكون مصيبته في أهل بيته أشد من لوعته في ابنه ، ثم يبعث إلى القواد والولاة ، حتى يصادف الربيع شيخا مؤدبا ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشده المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ قول أبي ذؤيب : « والدهر لا يبقى على حدثانه » ، عرف موطن الإبداع ، فاستعاده مائة مرة ، وهو يقول : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .

وكذلك كان المأمون ، وسيأتي من أخباره ما يدل على ذوقه وبصره.

وكان الناس يعرفون للشعر منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أحرج المواقف ، التي يتحاشون المواجهة فيها . كالذي حدث من نقض نقفور ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجزية . فلم يجرؤ أحد على

---

(١) العمدة ١ / ٧٧

إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يخبروه. فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وأنشده :

نقض الذى أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيدته ، قال الرشيد : أو قد فعل ؟ ثم غزاه وفتح هرقلة.

وكان الرشيد شاعرا كغيره من الخلفاء العباسيين ، الذين شاركوا فى النهضة الشعرية بقول الشعر ، إلى جانب عنايتهم به ، وإغداقهم على قائليه.

يروون أنه قال فى قينة :

تبدى صدوداً وتخفى تحته مقة ... فالنفس راضية والطرف غضبان

يامن وضعت له خدى فذلله ... وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقال فى رثاء جارية :

فارقت عيشى حين فارقتها ... فما أبالى كيفما كانا

قد كثر الكلام ولكننى ... لست أرى بعدك إنسانا

وقال فى جواريه الثلاث : سحر وضياء وفتنة :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البرية كلها ... وأطيعهن وهن فى عصيانى

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطانى

أما الذى لاشك فيه فهو أنه كان أدق حساً ، وأنقى ذوقا ، وأصح نهما وبصراً به من سواه . ولقد أنشده النمارى يوما فى صفة فرس :

كأن أذنيه إذا تشوفا ... قادمة أو قلما محرفا

فقال له : دع كأن ، وقل تخال ، حتى يستوى الشعر.

وقالوا إن المأمون وصف الشطرنج بقوله :

أرض مربعـــة حمراء من أدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
هذا يغير على هـــذا وذاك على هـذا يغير وعين الحرب لم تنم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة فى عسكرين بلا طبل ولا عـــلم

وبعد فهذه بعض أمثلة نضيفها إلى ماسبق ، ونتبعها بأخرى فى مجالس الأدب ، وكلها تدل بوضوح على مبلغ عناية خلفاء هذا العصر وأمرائه بالأدب والشعر ، كما تتجلى فيها منزلة الشعراء لدى هؤلاء الخلفاء ، وما كانوا ينعمون به من حظوة وجاه ومال .

— ١ —

أقبل أبو دلامة على المنصور ، فأنشده :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكم إلى السماء فأنتم أطهر النـــاس
وقدموا القائد المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذنان فى الراس

فهز أريحيته ، وأنساه حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شىء تجـــد أن نعينك ؟ قال أبو دلامة : تملأ لى هذه الخريطة دراهم ، فملئت فوسعت أربعـة آلاف درهم .

وقال الربيع بن زياد : قلت للمنصور يوما : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو لجب . فمن كان فى شعره هذا فلينصرف . فانصرفوا كلهم إلا ابراهيم بن هرمة الذى دخل فأنشده قصيدة قال منها :

له طينة بيضـــاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل

إذا ما أتى شيئاً مضى كالذى أتى وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

فقال : حسبك ، هذا عين الشعر ، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم .

— ٢ —

وهذا ابنه المهدى يدخل عليه عمرو بن سلم الخاسر ، فينشده :

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله

لقد بسط المهدى عدلا ونائلا كأنهما عدل النبى ونائله

فقال : أما ما ذكرت من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندى خاتمى هذا ، وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله أحد فيه ، وإنى لأتحراه جهدى .

ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده :

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت فى بنى العباس

شدت مناكب ملكهم بخليفة كالدهر يخلط لينه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . ثم دخل عليه بعدها فأنشده :

أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى

هذا الخليفة جوده ونواله نفد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا .

ودخل عليه ابن الخياط فمدحه ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يمدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

فلما بلغ المهدى مافعل أعطاه بكل درهم ديناراً .

ودخل مروان بن أبي حفصة على الهادي فأنشده في مدحه :

تشابه يوما بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي : أيما أحب إليك ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدور في الديوان ؟ قال : تعجل الثلاثون ألفاً وتدور المائة ألف ، قال : بل تعجلان لك جميعاً ، فحمل له ذلك .

وأسند الصولي عن سعيد بن سلم قال : إني لأرجو أن يغفر الله للهادي بشيء رأيته منه . حضرته وأبو الخطاب السندي ينشده في مدحه :

يا خير من عقدت كفاه حجزته وخير من تلدته أمرها مضر

فقال الهادي : إلا من ؟ ويلك . فقلت يا أمير المؤمنين : إنما يعني من أهل هذا الزمان ؛ ففكر الشاعر فقال :

إلا النبي رسول الله إن له فضلا وأنت بذاك الفضل تفتخر

فقال : الآن أصبت وأحسنت ، وأمر له بخمسين ألف درهم (١) .

— ٤ —

أما الرشيد فقد جاوز عطاؤه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنايته بالشعر كل عناية ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم العلماء ، ويتأثر بالشعر أبلغ التأثر ، حتى إنه لما آلمه طعن الملاحين الذين كانوا يغنون في دجلة ، أمر أبا العتاهية وهو في السجن أن يعمل لهم شعراً يغنون فيه ، ليصلح

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧١ و ١٧٧

من ألسنتهم ، فعمل أبو العتاهية شعراً في الوعظ والتذكير بتقلب الأيام ، ليغض على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر باطلاقه من السجن . فكان الرشيد يبكي وينتحب إذا سمع هذا الشعر الذى كان منه :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
يعجب المرء يوما جسداً ما فيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والـ ـموت يغدو ويروح
نح على نفسك يا مسـ ـكين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عمـ ـرت ما عمر نوح

ولقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسدت بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر

فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وكساه خلعته ، وأمر له بعشرة من رقيق الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه .

ومدحه ابراهيم الموصلي لما ولى الخلافة واستوزر يحيى بن خالد ، فقال .

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها

فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً .

— ٥ —

وقال المأمون يوماً لحمد بن الجهم : أنشدنى ثلاثة أبيات فى المدح والهجاء والرثاء ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده فى المدح :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشده فى الهجاء :

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم ... حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وأنشده فى الرثاء :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

— ٦ —

وكان المتوكل جواداً ممدوحاً ، يقال : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى المتوكل .. دخل عليه على بن الجهم ، وبيديه درتان يقلبهما ، فأنشده قصيدة ، فرمى إليه بدرة ، فقلبها ، فقال : تستنقص بها وهى والله خير من مائة ألف ؟ قال : لا ، ولكنى أفكر فى أبيات آخذ بها الأخرى ، فقال : قل ، فقال :

بسر من را إمام عدل ... تغرف من بحره البحار

الملك فيه وفى بنيه ... ما اختلف الليل والنهار

يرجى ويخشى لكل خطب ... كأنه جنة ونار

يداه فى الجود ضرتان ... عليه كلتاهما تغار

لم تأت منه اليمين شيئا ... إلا أتت مثله اليسار

فرمى إليه بالدرة الأخرى (١)

ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان بن أبى حفصة ، فأنشده :

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٣٢

سقى الله نجداً والسلام على نجد ويا حبذا نجد على القرب والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها لعلى أرى نجدا وهيهات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتى ولا شىء أحلى من زيارتهم عندى

فلما أتم القصيدة نفحه بعشرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة من الظهر ، حتى أنطقه بالشكر فى قوله .

تخير رب الناس للناس جعفرا فملكه أمر العباد تخيرا

فلما انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى ، ولا تبرح أو تسأل حاجة ، فسأله ضياعا كانت قد أقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فردها إليه .

ودخل عليه البحترى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له قل فى هذا يا بحترى ، قال البحترى : ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى اعتزلت جانباً ، فقلت :

ذات ارتجاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربا فى برد
كأنما غدرانها فى الوهد يلعبن من حبابها بالنرد

فقال المتوكل : انظروا ماذا فى الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه

---

(١) الارتجاز : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طويلة ، والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلبا

إلى البحتري . قال : فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، و بعته بمال .

— ٧ —

ولم يكن عظماء الدولة وولاتها وأمراؤها أقل اهتماماً بالشعر ، أو بذلا للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال ، حتى كرمهم خالد بن برمك ، وسماهم الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم . فقال بشار :

حذا خالد فى فعله حذو برمك ... فمجد له مستطرف وأصيل

وكان ذوو الآمال يدعون قبله ... بلفظ على الاعدام فيه دليل

يسمون بالسؤال فى كل موطن ... وإن كان فيهم نابه وجليل

فسماهم الزوار سر علیهمو ... فأستاره للمجتدين سدول

فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم . وكان يعطيه فى كل وفادة خمسة آلاف ، بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثين ألف درهم .

* * *

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء يبذلون للشعراء ، ويغدقون عليهم ، وكأنما أخذتهم رقى الشعر ، وصرعتهم شياطينه ، فهم يعطون باليمين وبالشمال ، ويتخرقون فى هذا العطاء حتى كأنهم لا يدرون ماذا يعطون ، وكان الأمراء من حولهم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، ويمنحون هذا المنح .

ولو أننا أفضنا فى أخبار هؤلاء الخلفاء ، وتتبعنا عطاياهم الجسام ، وصلاتهم التى تفوق الخيال ، لما اتسع لذلك المجال ، فحسبنا هذا القبس دليلا على عنايتهم بالشعر ، وانطباع نفوسهم على حبه ، وإيثارهم للشعراء ، وتقريبهم ، والإسراف فى مثوبتهم ، حتى صارت لهم منزلة لا تدانيها منزلة ، ومكانة لا تساويها مكانة ، فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويتقبلون إساءتهم ، ويغضون عن أذاهم ، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من هجاء ، ولقد قالوا إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيسومني المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالأمس رأس محمد

إن التراث مسهد طلابها ... فاكفف لعابك عن لعاب الأسود

إني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فذهب أبو سعد المخزومي ، وأنشد المأمون هذا الهجاء ، وقال له : أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه ، فقال له : لا ، هذا رجل فخر علينا ، فافخر أنت عليه ، فأما قتله بلا حجة فلا .

ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلا ، متى كنت خاملا وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت وفي مهدها ربيت » . (١)

وقالوا إن المتوكل غضب على محمد بن البعيث ، لخروجه عليه ، فأرسل إليه من أتى به أسيراً ، فأمر بضرب عنقه ، فأنشده :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي ... إمام الهدى والصفح بالناس أجمل

وهل أنا إلا جبلة من خطيئة ... وعفوك من نور النبوة يجبل

فإنك خير السابقين إلى العلا ... ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل لجلسائه : إن فيه لأدبا ، وأمر باطلاقه والعفو عنه ؛ وهكذا شفع له مقام الأدب ، وجاه الشعر ، وما أعظمه من جاه عند هؤلاء الناس .

بل إن أبعد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم ، ما كان من أبي تمام حين شفع للواثق عند أبيه في ولاية العهد ، فقال :

فاشدد بهرون الخلافة إنه ... سكن لوحشتها ودار قرار

ولقد علمت بأن ذلك معصم ... ما كنت تتركه بدون سوار

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢١٦

مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويجلون الشعراء ذلك الاجلال ، ويحلونهم من نفوسهم وقلوبهم تلك المكانة ، وينزلونهم من عنايتهم ورعايتهم هذه المنزلة ، فلا يكتفون بما يسد رمقهم ، أو يغنى حاجتهم ؛ بل يغمرونهم بالعطاء ، ويغرقونهم بالثراء ؛ ويغمونهم بالترف والبذخ والنعيم ... قوم هذا شأنهم ، لا بد أن تعمر مجالسهم بالأدب ، وتحفل نواديهم بالشعر ، وتزخر قصورهم بالشعراء والأدباء ، ولا بدع فهم عرب تترنح أعطافهم نشوة بالأدب ، وتهتز أريحيتهم نشاطا له ؛ وتهفو مشاعرهم صبوة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء فى هذا العصر — كما كان لغيرهم من رجال الفن والأدب — مجالس يتفاكهون فيها بالطريف من الشعر ، ويتسامرون بالغريب من الرواية ، ويتجاذبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليق والنقد ، ويستجيدون الجيد ، ويهجنون الضعيف . وكلها تدل على دقة الحس ، ورقة الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنايتهم بالأدب ، واعتبار مجالسه متعة للنفس ، وغذاء للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل والقلب والشعور .

وهذه بعض أمثلة لمجالس الأدب والشعر فى هذا العصر :

— ١ —

عقد المهدى يوماً مجلساً لمروان بن أبى حفصة حشد فيه وجوه بنى العباس ، فلما اكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كأن أمير المؤمنين محمدا لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهمو سقته به الموت الحتوف الرواصد

فأشار إليه فأمسك ، فقال يا بنى العباس ، هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادى فيكم ، فآتوه ما يسره ، فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وأعطاه هرون مثلها ، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطاه هو ثلاثين ألفاً ، ثم قال له : وسيأتيك منى ما يؤديك إلى الغنى ، فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ما سأزداد به شعراً .

— ٢ —

وقالوا إن المنصور ركب يوما هجيناً فى وقت الهاجرة ، فجعلت الشمس تلمع بين عينيه . فقال لمن حوله : إنى قائل بيتاً ، فمن أجازه فله جبتى هذه ، وقال :

وهاجرة نصبت لها جبينى يقطع ظهرها ظهر العظاية (١)

فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص فقاض دمعى على خدى وأقصر واعظايه

فنزع المنصور جبته وهو راكب ، وأعطاها له ، فباعها بأربعمائة دينار .

— ٣ —

وكان الهادى مغرماً بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، عقد مجلسا للشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه ، فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدى من بين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمدت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من زعاف يميس فيه المنون
فإذا ما سللته بهر الشمـ ـس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالى من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقبس المشـ ـعل ما تستقر فيه العيون

(١) العظاية : دويبة صغيرة ملساء تشبه سام أبرص

وكأن الفرند والجوهر الجا ... رى على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم .

— ٤ —

وكانت مجالس الرشيد أعمر هذه المجالس ، وأحفلها بالأدب ، لأنه كان عالما شاعراً أديباً ، ذا حس مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب ، وغرام بالشعر ، كما كان أجزل الخلفاء عطاء ، وأبلغهم تأثراً وتقديراً .

وهو الذى شق عليه امتناع أبى العتاهية عن قول الشعر وحضور منادمته حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح فى رده عن هذه الحال ، أمر بضربه ستين عصا ، ثم سجنه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر . ولكن أبا العتاهية أقسم ألا يتكلم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد وأمر بالتوسعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية فى امرأته :

من لقلب مقيم مشتاق ... شفه شوقه وطول الفراق

طال شوقى إلى قعيدة بيتى ... ليت شعرى فهل لنا من تلاق

فلما سمع الرشيد الشعر ، أعطاه بدل الستين عصا ، ستين ألف درهم .

ودخل عليه أعرابى فأنشده ، فقال : يا أعرابى أسمعك مستحسنا ، وأنكرك متهما ، فقل لنا بيتين فى هذين — الأمين والمأمون — فقال : يا أمير المؤمنين حملتنى على الوعر القردد [1] ، وأرجعتنى عن السهل الحدرد ، روعة الخلافة ، وبهر الدرجة ، ونفور القوافى على البديهة ، فقال الرشيد : قد جعلت اعتذارك بدلا من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفست الخناق ، وسهلت ميدان السباق ، ثم أنشد :

بنيت لعبد الله ثم محمد ... ذرى قبة الإسلام فاخضر عودها

---

(١) القردد : ما ارتفع من الأرض

ها طنباها بارك الله فيها وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك ، قال : الهنيدة [١] يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع .

وروى حماد بن اسحق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعى والكسائى ، فسأل الرشيد عن بيت الراعى :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا

فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعى وتهانف [٢] ، فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضاً أنه دخل فى شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعام إذا دخل فى شهر أو عام . فقال الكسائى : ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للاحرام ؟ قال الأصمعى : فخبروني عن قول عدى ابن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يمتع بكفن

أى إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان بات شيئاً يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعى ما تطاق فى الشعر .

ودخل عليه سهل بن هرون ، وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده وابسط له فى البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه . مقصراً عن غده . فقال الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ، ومن الحديث أصحه وأبلغه ، ومن البيان أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه . . قال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمنى إلى هذا المعنى . فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

---

(١) الهنيدة : مائة من الابل (٢) التهانف ضحك فى فتور واستهزاء

وجدتك أمس خير بني لؤي وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذلك تزيد سادة عبد شمس

— ٥ —

ولم يكن المأمون بأقل من أبيه فهما للشعر ، وبصراً بالأدب ، وعناية بالأدباء وإفساحاً لهم في مجالسه .

ولقد حضر بمجلسه مرة مروان بن أبي حفصة ، فأنشده :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فلم يطرب المأمون ، ولم يسغ ما قال الشاعر ، وأعرض عنه ، فقال مروان لعمارة بن عقيل : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عمارة : ومن ذا يكون أعلم به منه ؟ والله إنا لننشده أول البيت ، فيسبقنا إلى آخره ، قال مروان : إنه لم يتحرك لقولي . فقال عمارة : إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها ، وفي يدها مسابحها ! فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ؟ هلا قلت فيه كما قال عمك جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان : الآن علمت أني أخطأت

وقال النضر بن شميل : دخلت على المأمون في سمره ليلة ، فدار الحديث على ذكر النساء ، فروى المأمون عن هشام حديث الرسول « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد — بفتح السين — من عوز » قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي كرم الله وجهه عن رسول الله : إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد

ـ بكسر السين ـ من عوز . وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال يا نضر ، كيف قلت سداد بالكسر ؟ فقلت نعم لأن السداد بالفتح لحن ، قال أو تلحننى . قلت : إنما لحن هشام فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال : فما الفرق بينهما ؟ قلت : السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل ، وبالكسر البلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم : هذا العرجى يقول :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

قال المأمون : قبح الله من لا أدب له ، ثم أمر لى بخمسين ألف درهم ودفع لى الفضل بن سهل ثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف واحد .

— ٦ —

واجتمع الشعراء فى مجلس المعتصم فقال لهم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النمرى فى الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت أمرأ فالله رافعه ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليقل ، فقال محمد بن وهيب الحميرى : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه فى الاشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجاً إذا استنارت لياليه به الغرر

فهش له وبالغ فى جائزته .

— ٧ —

وكذلك كان المتوكل فى مجالسه ؛ والبحترى يصول فيها ويجول . ولقد شهد أبو عنبس الصيمرى بعض هذه المجالس ، فقال : كنت فى مجلس المتوكل والبحترى ينشده :

عن أى ثغر تبتسم ... وبأى طرف تحتكم

حتى انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر ال ... متوكل بن المعتصم
والمجتدى بن المجتدى ... والمنتعم بن المنتقم
اسلم لدين محمد ... فإذا سلمت فقد سلم

وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ، وأشدهم غروراً ، فضجر المتوكل وقال لى : أما تسمع ما يقول يا صيمرى ؟ قلت بلى ياسيدى ، فمرنى بما أحببت قال بحياتى اهجه على هذا الروى ، فقلت :

أدخلت رأسك فى الرحم ... وعلمت أنك تنهزم
يا بحترى حذار ويـ ... ـحك من قضاقضة ضغم (١)
فلقد أسلت بوالديـ ... ـك من الهجا سيل العرم
فبأى عرض تعتصم ... وبهتكه جف القلم
وبحق جعفر الأما ... م ابن الامام المعتصم
لأصيرنك شهرة ... بين المسيل إلى العلم

فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق بيديه ؛ وخرج البحترى غاضباً .

---

(١) قضاقضة : جمع قضقاض وهو الأسد . ضغم : جمع ضيغم وهو الأسد

ألفاظ الشعر وأساليبه

— ١ —

تغيرت الحياة العربية فى هذا العصر الذهبى تغيرا ملموساً يوشك أن يجعلها جديدة كل الجدة فى جميع مظاهر العيش والاجتماع . فقد أظلت الحضارة الناس بظلالها وألوانها ، وغمرتهم المدنية بزخارفها وزينتها . حتى رأيناهم يتأنقون فى اللباس ، ويفتنون فى الطعام ، ويزخرفون فى المسكن ، ويصفون فى كل مظهر .

فلم يعد مسكنهم بالخيمة التى ترفع عمدها ، وتشد أطنابها ، فى رمال الصحراء المنبسطة ، وإنما هو غرف تزدان بالمناضد ، وتزركش بالستائر ، وتحلى بالمرصعات ، وتتألق بالثريات . وبالقرب منها ، قصور الخلافة بسقوفها المحلاة ، وحيطانها الموشاة ، وأرائكها الوثيرة ، وثرياتها الناصعة ، وأبهائها العامر وليالبها الساهرة ، وقيانها المغردة .

ولم يعد طعامهم بالثريد أو الحيس ، وإنما هو ألوان وأنواع ، يتأنقون فيه فيطعمونه فى صحاف الذهب والفضة ، ويخلطونه بماء الورد والكافور (١) كما يحلون أوانى الشراب بالصور المنقوشة ، والحلى المزركشة ، على نحو ما يصف أبو نواس فى قوله:

تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

وكذلك كان تأنقهم فى الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب المصبغة بألوان الزهر كما يلبس النساء ، والنساء يلبسنها مطرزة موشاة ، وهذا ابن الرومى يشبه بها قوس قزح فيقول:

---

(١) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٠١

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ... على الجود كفاها والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

وكن يحلين الرؤوس بحلي من الذهب ، ويزينها بالمصابات المنضدة ، ويحاكين الفارسيات فى صبغ الشفاه والخدود .

هذه الحضارة الزاهيـة بألوانها ومظاهرها ، وما فيها من جمال وتجميل ، وزخرف ووشى ، وصنعة وتصنيع ، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة ، كما يقول ابن خلدون : « وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ ، واستجادة مايطلب منها ، بحيث تتوفر دواعى الترف والثروة » (١)

وهكذا تأثر الأدب بالمدنية والحضارة ، وكان الشعر دائما أكثر تأثراً ، وأسرع استجابة للمدنية والتحضر ، لأنه المجال للظرف والتأنق ، والمصور للحسن والجمـــال ، والمحلق فوق الطبيعة بأجنحة الخيال ، والموضوع الأول للحن والغناء . ولهذا :

١ — رقت ألفاظه وعذبت ، ولانت تراكيبه وسهلت ، حتى كاد كل منهما يسيل رقة حاشية ، وأناقة مظهر ، وعذوبة مخرج ، وسهولة بيان . فهجرت الكلمات الغريبة ، ووضحت الأساليب ، وأشرقت ديباجة الكلام :

قال البحترى :

مخلف فى الذى وعـــد ... سـيل وصلا فلم يجـد
وهو بالحسن مستبـ ... ـد وبالدل منفرد
يتثنى على قضيـ ... ـب ويفتر عن برد

---

(١) المقدمة ص ٢٨١

قد تطلبت مخرجا من هواه فلم أجد
ضاق صدرى بما أجـ ـن وقلبى بما وجد
وتغضبت أن شكو ت جوى الحب والكمد
واشتكائى هواك ذنـ ـب فإن تعف لم أعد

وقال أبو تمام فى وصف الروض :

إن الربيع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جثمان
مصوراً فى صورة الانسان لكان بسامًا من الفتيان
بوركت من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ثرى نشوان
تختال فى مفوف الألوان فى زهـر كالحدق الروانى
من فاقع وناصـع وقان عجبت من ذى فكرة يقظان
رأى جفون زهر الألوان فشك أن كل شىء فان

ألست ترى أثر الحضارة فى رقة اللفظ وصفائه ، وسماحة الأسلوب وبهائه ، وسجاحة الكلام وإشراقه ؟

وقد اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل فى مجلس ، فقالوا لينشد كل واحد منكم أجود ماقال ، فأنشدهم أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمنى اللوم

فقال أبو نواس إنى أرى نمطاً خسروانياً مذهباً(١).

ويحدثنا ابن رشيق أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا

---

(١) اغانى سامى ١٥ ـ ١٠٥

يوماً فقال أبو نواس : لينشد كل منكم قصيدة لنفسه فى مراده ؛ فأنشد أبو العتاهية :

يا إخوتى إن الهوى قاتلى ... فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى ... فانى فى شغل شاغل
عينى على عقبة منهلة ... بدمعها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الضحاك ، وقالا : أما مع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا ننشد شيئاً[٢]

وهكذا لان عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورقت شمائلهم فرقت عباراتهم .

٢ — وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، وما تزدان به الحياة من قصور ورياض ، وملاعب حسان ، ومجالس لهو وشدو ، أن خلا أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبكاء الديار ، وانصرف الشعراء عن هذا النحو الذى يذكرهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة وبريقها .

ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطيع بن إياس . ذكروا أنه اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن ، فقال مطيع :

لأحسن من بيد يحاربها القطا ... ومن جبلى طى ووصفكما سلما
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما ... له مقلة فى وجه صاحبة ترعى

وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كما فى قوله :

قل لمن يبكى على رسم درس ... واقفاً ما ضر لو كان جلس

وقوله .

صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

---

(١) العمدة ١ / ١٠٦

وقوله :

تبكى على طلل الماضين من أسد ... لا در درك قل لى من بنو أسد
لاجف دمع الذى يبكى عل حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وقوله :

دع الرسم الذى دثرا ... يعانى الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى ... وسابور لمن غبرا

وقد كان لهذه الحملة أثرها فى الشعراء ، فكان منهم من استبدت به نشوة الراح ، وصرعته حميا الاقداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتدأها بالغزل ومنهم من بهره جمال الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة . فراح يشدو بمحاسنها ، ويتغنى بوشيها وروائها ، ويجعل ذلك استهلالا لقصيده وفاتحة موضوعه

وإنا لنرى أبا تمام يمدح المعتصم ، فيقدم بين يدى هذا المدح وصف الربيع ، ويمثل الدهر فى حواشيه الزاهية التى يتمايل فيها الثرى ، كعروس تتثنى فى حليها ، وتتكسر فى زينتها :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر ... وغدى الثرى فى حليه يتكسر
من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهدانها ونجادها ... فتنين فى حلل الربيع تبختر

أرأيت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يختال فى وشيها وزينتها ورقتها ؟

على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر فى هذا العصر ، تلك هى أن الشعراء أخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويتخذون لها سمتاً آخر غير ذلك كله .

فجعلوا المطلع دالا على القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع القصيدة ابتداء ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو فخامة ، وسهولة أو جزالة .

ومن ذلك ابتداء أبي تمام في مدح المعتصم بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله في مطلع مرثية :

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد تبع ذلك احتفالهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذنا بالفراغ ، مشيراً إلى الانتهاء . باشتماله على ما تسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو نحو ذلك .

٣ — ومرى زخرف الحضارة ورقيها ، وما فيها من تصنيع وتجميل إلى الشعر ، فظهر المحسن البديعي ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباق وتورية ونحو ذلك .

وقد كان أول أمره ساذجا واضحاً في شعر مسلم وأبي نواس والبحتري ؛ ثم غلا فيه أبو تمام وأوغل ، حتى غض من جمال شعره ، وما زال الشعراء يلحون فيه ، ويتوسعون في فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الإبداع فيه ابن المعتز .

وانظر إلى الجناس والطباق في شعر مسلم بن الوليد الذي يعد أول من سمى هذه المحسنات بالبديع ، كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح في شعره . قال يمدح يزيد بن مزيد الشيباني :

يغشى الوغى وشهاب الموت في يده يرمي الفوارس والأبطال بالشعل

(يفتر) عند (افتراره) الحرب (مبتسما) إذا (تغير) وجه الفارس البطل
وقف على (مهيج) فى يوم ذى (رهج) كأنه (أجل) يسعى إلى (أمل)

واقرأ هذا الطباق الذى يعد أهم لون كان يستخدمه البحترى . إنه طباق لاتعقيد فيه ولا تكلف ، ولكنه بسيط ساذج ، أشبه مايكون بتداعى المعانى ، لامشقة فيه ولا صعوبة :

منى وصل ومنك هجر وفى ذل وفيك كبر
وما سواء إذا التقينا سهل على خيلة ووعر
قد كنت حراً وأنت عبد فصرت عبداً وأنت حر
أنت نعيمى وأنت بؤسى وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثره العميق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ، يستخدم ألوان البديع استخداماً فلسفياً ، ويمزجها بالتصوير مزجا غريباً حتى يكد الذهن فى فهمه ، ويتعب العقل فى إدراكه .

إنه يصف بعيره وما أصابه من تحول وسقم لكثرة الأسفار فيقول :

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فلا تجد طباقا عاديا بين رعته ورعاها ، إنه بعير يرعى الفيافى وترعاه الفيافى ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتصوير

وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض المطايا فى سواد المطالب

واقرأ له فى المشاكلة :

أظن الدمع فى خدى سيبقى رسوما من بكائى فى الرسوم

وكذلك كان جناسه يتكىء على التصوير ويلتف على التشبيه والاستعارة :

تطل البطاول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواثل

فقد سحبت فيها السحائب ذيلها وقد أخملت بالنور منها الخمائل

وكذلك (التدبيج) فى مثل قوله :

كأن سواد الليل ثم اخضراره طيالسة سود لها كفف خضر

وهكذا كان أبو تمام يغرب فى المحسنات إغرابه فى معانيه ، حتى إنها لتستنفد منه جهداً شاقا ، إذ يغرقها فى استعاراته وتصويره ، فيجللها الغموض

ومن مطرف الجناس قول البحترى:

فإن صدفت عنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

ومن مقلوبه قول العباس بن الأحنف:

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حتف

— ٣ —

وكان للغناء — وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة — أثره فى انتقاء ألفاظ الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب

وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندمجة فيها . وقد استجاب الشعراء للمغنين ، فنظموا لهم المقطوعات الصغيرة التى تناسبهم ، وتخيروا لهم الألفاظ الرقيقة الرشيقة ، والأساليب السهلة الأنيقة ، والأوزان المستحدثة القصيرة .

وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائى المهذب الرقيق ، واحتفل الشعراء به ، وتسابقوا فيه ، وذهبوا فى ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل مذهب حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأحنف ، الذى يقول عنه صاحب الأغانى : « لولا أن العباس أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ماقدر أن يكثر شعره فى مذهب واحد وبجوده » .

وقد أثر الغناء فى أوزان الشعر لأن المغنين كانوا يدخلون فى الغناء ألحانا

فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا فى أوزانهم ، على النحو الذى سنتحدث عنه فيما بعد . كما يلاحظ أنهم تجنبوا كثيرا - فى شعرهم الغنائى - الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان التقليدية الأخرى ، وأكثروا من البحور المجزوءة التى تلائم الغناء .

ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر فى الشعر بوجه عام ، غنائياً كان أو تقليدياً ، من حيث الموسيقى الداخلية ، التى تعنى اختيار الكلمات وترتيبها والمشاكلة بين أصواتها ومعانيها .

ومن الممكن اعتبار البحترى أبرع شاعر يصور هذا الجانب . قال الباقلانى: «إنه كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديداً [1] ... وما يزال يتتبعها حتى يؤلف منها ألفاظا عذبة ، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى [2]

اقرأ له فى رثاء المتوكل ، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة لأنه ثائر غاضب ، كأن لها قعقعة السلاح ؟ وكيف ربط القوافى بالهاء الساكنة ، فصوته ينطلق بالكلمات والمقاطع ، ثم ينخفض فجأة كالنائح التعب :

محل على القاطول أخلق دائره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
تغير حسن الجعفرى وأنسه ... وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل أستاره وستائره

واقرأ له :

لى حبيب قد لج فى الهجر جدا ... وأعاد الصدود منه وأبدى

---

(١) إعجاز القرآن ١٠٦ (٢) المثل السائر لابن الاثير ١٠٦

يقأبى منعاً ، وينعم إسعا ... فا ، ويدنو وصلا ، ويبعد صدا
أغضبى راضيا وقد بت غضبا ... ن ؛ وأمسى مولى وأصبح عبدا
وبنفسى أفدى على كل حال ... شادنا لو يمس بالحسن أعدى
مربى خالياً فأطمع فى الوصـ ... ـل وعرضت بالسلام فردا
وثنى خده إلى على خو ... ف فقبلت جلنارا ووردا
سيدى أنت ما تعرضت ظلما ... فأجازى به ولا خنت عهدا
أتراك مستبدلا بك ما عش ... ت بديلا أو واجدا منك ندا
حاش لله أنت أفتن ألحا ... ظا ، وأحلى شكلا ، وأحسن قدا

فأنت تراه قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق فى فن الصوت ، فقد كرر الجيم فى الشطر الأول ، وكرر الدال فى الثانى ، فأحدث فى البيت الأول توافقاً صوتياً ، وفى البيت الثانى يوفق بين الألفاظ ، فيأتى بكلمة (يقأبى) كأنها مشدودة إلى (ينعم) بهذا الرباط المحكم (منعاً) ، وعلى هذا النحو فى شطره الثانى . وانظر إلى الطباق بين يدنو ويبعد ووصلا وصدا . ثم انظر إلى إقبال كل كلمة على أختها فى البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسى أفدى وتشابكهما . وكذلك ما فى الأبيات من طباق وتقسيم ومقابلة ، وما فى قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد الحروف والسكنات والحركات ، ثما يسميه البديعيون بالتطريز . وهكذا تجد الجوانب الموسيقية المتعددة (١)

— ٣ —

ولقد اختلط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية على نحو ما درسناه فيما سبق ، ولهذه العناصر ثقافاتها ولغاتها وألفاظها واصطلاحات علومها وفلسفاتها ،

(١) راجع الفن ومذاهبه فى الشعر العربى لشوقى ضيف ٥٦ .

وكان لهذا الامتزاج أثره فى ألفاظ الشعر إلى جانب آثاره فى نواحيه الأخرى. فقد شاعت فى الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أوعربت وصقلت وربما كان بقاؤها على حالها للتظرف والتفكه ، على نحو ما كان يصنع الأعشى وغيره من قدامى الشعراء .

يقول أبو نواس :

خبز إسماعيل كالوشـ ـى إذا ماشق يرفى
إن رفاءك هذا أحذق الأمة كفا
فإذا قابل بالنصـ ـف من (الجردق) نصفا
أحذق الصنعة حتى لا ترى مغرز إشفى (١)

ويقول إبراهيم الموصلي :

إذا ما كنت يوما فى شجاها فقل للعبد يسقى القوم (يرا) (٢)

ويقول المعانى فى وصف من وقف بين الآساد :

لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد (٣)

أما ما صقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون معرب آذركون ، أى لون النار ، ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، يقول ابن المعتز :

عيون آذريونها للشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

وكذلك نيروز معرب نوروز ، ونحو ذلك .

(١) الجردق الرغيف معرب كردة : والأشفى المثقب
(٢) اير لفظ فارسى معناه ملآن وهو بتشديد الراء
(٣) آب سرد : هو الماء البارد

كما شاعت فى ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التى كانت تجرى على الألسنة فى العلوم الكلامية والفلسفية والكيمائية والهندسية ونحو ذلك.

قال أبو نواس :

وذات خد مورد قوهية المتجرد
تأمل العين منها محاسنا ليس تنفد
فبعضها قد (تناهى) وبعضها (يتجدد)

ويقول أبو تمام فى الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء

ويقول :

هب من له شىء يريد حجابه ما بال لا شىء عليه حجاب

فعبر عن العدم بكلمة (لا شىء) الفلسفية .

ويقول :

صاغهم ذو الجلال من (جوهر) المجـ ـد وصاغ الأنام من (عرضه)

كما يقول :

ان ينال العلا (خصوصاً) من الفتيـ ـان من لم يكن نداه (عموما)

ويقول غيره :

محاسنه (هيولى) كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال[1]

وعلى هذا النحو سار الشعراء بعد هذا العصر فى الاقتباس من المصطلحات، حتى رأينا المتنبى يقول :

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

* * *

(١) الهيولى : الأصل .

والخلاصة أن عوامل الحضارة والغناء والامتزاج ، أثرت تأثيرها فى لفظ الشعر وأسلوبه ، بما طرأ عليهما من رقة اللفظ ، وعذوبة الكلام ، وسجاحة التركيب ، وسهولة الأسلوب ، وإشراق الديباجة ، وجمال الاستعارة ، ولطف التشبيه ، واستحداث البديع والاكثار منه ، والاكثار من النظم فى البحور القصيرة ، وابتداع أوزان جديدة ، واستعمال الألفاظ والمصطلحات الأجنبية ، والعناية بمطالع القصائد وختامها ، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة .

قال الحاتمى : « مثل القصيدة مثل الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة تشين محاسنه ، وتخفى معالمه ؛ وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناع من المحدثين ، يحترسون فى مثل هذه الحال حتى يقع الاتصال ، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة . . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم . . »

أما الذى هجرفهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر ، والاستهلال بذكر الأطلال .

الأوزان والقوافى

وتتصل بألفاظ الشعر وأساليبه أوزانه وقوافيه ، وقد قلنا إن الغناء حمل الشعراء على متابعة المغنين بتحرى الأوزان الملائمة للألحان ، وابتداع أوزان أخرى تساير فنون الموسيقى والغناء .

ولقد أرجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بحراً ، وجعلها تلميذه الأخفش ستة عشر بإضافة المتدارك .

وقد راح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التى تناسب الغناء:

كالمتقارب والهزج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألموا بالبحور الطويلة نوعوا فيها أو جزؤوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يخترعون أوزانا أوحى بها مزاجهم ، أو دعا إليها فن الغناء . فامسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يأيها المعمود قد شفك الصدود
فأنت مستهام حالفك السهود

وأخرى مطلعها :

نبا به الوساد وامتنع الرقاد

وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى الهادى على جزء واحد :

موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز

وكان أبو العتاهية مشغوفا باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب يوما فسمع صوت مدقه ، فحكى ذلك فى ألفاظ شعره :

للمنون دائرا ت يدرن صرفها
ثم ينتقينا واحدا فواحدا

ولما روجع فى هذا قال أنا أكبر من العروض .

وهو الذى يقول :

عتب ما للخيال خبرينى ومالى
لا أراه أتانى زائرا مذ ليالى

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا فى هذا العصر المقتضب والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل فى الشعر العربى [1]

(١) الفصول والغايات ١٣٢

مثال المقتضب قول أبي نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبي العتاهية :

أيا عتب ما يضر لك أن تطلقي صفادي

أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فبعضه استنبطوه من دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة.

— ١ —

فالنوع الأول :

١ — المستطيل ، وهو مقلوب الطويل (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

٢ — الممتد ، مقلوب المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين:

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا

٣ — المتوافر ، محرف الرمل (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين :

ما وقوفك بالركائب في الطلل ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

٤ — الممتد ، مقلوب المجتث (فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن) مرتين :

كن لأخلاق التصابي مستمريا ولأحوال الشباب مستحليا

٥ — المنسرد ، مقلوب المضارع (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين :

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى

٦ — المطرد ، صورة أخرى من المضارع (فاع لاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرتين :

ما على مستهام ربع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد

— ٢ —

أما النوع الثانى ، فهذه ألوانه :

١ — السلسلة (فعلن فعلاتن مفعلن فعلاتان) وهو من اختراعات البغداديين :

السحر بعينيك ما تحرك أو جال إلا ورمانى من الغرام بأوجال

٢ — الدوبيت ، وهو مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه لأن (دو) بالفارسية معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، ووزنه (فعلن مفاعلن فعولن فعلن)

قد أقسم من أحبه بالبارى أن بعث طيفه مع الأسحار
يانار أشواقى به فاتقدى ليلا فعساه يهتدى بالنار

٣ — القوما وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس للسحور فى رمضان ، ولعله مأخوذ من قولهم (قوما نسحر قوما)، ووزنه (مستفعلن فعلان)، ولغته ملحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد ولطف رأيه سديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيد
ولا عدمنا نوالك فى صوم وفطر وعيد

٤ — المواليا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائما وهو على وزن البحر البسيط ، وأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد أن نكبهم الرشيد وأمر ألا يرثوا بالشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صنائعهم ينوحون عليهم به ، ويكثرون من قولهم (يامو الى) فعرف بهذا الاسم ، وهو مشهور بين عامة مصر بالموال . وهو على أنواع ، فقد يجىء مصرعا كله ، وقد يختلف

مصراع منه ، وقد يخالف بين مصاريعه ، على ما نراه فى المواويل البلدية .

ياعبد ابكى على فعل المعاصى ونوح هم فبين جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غرورة تجى لك فى صفة مركب ترمى حمولها على شط البحور وتروح

٥ — كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكايات والخرافات ، ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجوارى فى البحر كالأعلام

٦ — أما الموشح فهو أندلسى النشأة ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث ، ثم انتقل إلى المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذى ندرسه . وهم ينظمونه أسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا ، ويلتزمون قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهى إلى سبعة أبيات[1] وأوزانه كثيرة ، منها (مستفعلن فاعلن فعيل) :

ياجيرة الأبرق اليمان هل لى إلى وصلكم سبيل

ومنها (فاعلاتن فاعلن مستفعل فاعلن) :

كالى .... ياسحب تيجان الربا بالحلى
واجعلى .... سوارك منعطف الجدول

٧ — وكذلك الزجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد نضج الموشحات ؛ إذ أخذ أهل الأمصار ينسجون على منوالها بلغتهم الحضرية من غير التزام إعراب ، وسموا هذا النوع الزجل ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان

(١) ابن خلدون

الأندلسي ، ولا حصر لأوزانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال :

الفراق نار والوصال جنة والملايق بعضهم يعشق
وطبيب الهجر يتوقد والوصال م الملاح يشتق

— ٣ —

ولقد تبع بعض هذه الأوزان — كما رأينا — تغيير طرأ على القافية فلم تعد تلتزم كما كان معروفا من قبل ، بل دعاهم الانفلات من قيود الوزن ، إلى الانفلات كذلك من قيود القافية .

على أن من أظهر ماطرأ على القافية هو المسمط والمزدوج والمخمس.

١ — فالمسمط أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرع ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسما على قافية البيت الأول ، وهكذا . وربما خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة . ومنه :

غزال هاج لى شجناً فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتهناً
بذكر اللهو والطرب
سبتنى ظبية عطل كأن رضابها عسل ينوء بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

٢ — والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من أخرى ، وهكذا ، كقول أبى العتاهية :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
ماانتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بأنواع القذى
إن الشباب حجة التصابى روائح الجنة فى الشباب

وهذه المزدوجة لأبي العتاهية تسمى ذات الأمثال، وله فيها أربعة آلاف مثل

٣ — والمخمس أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامس

قافية مخالفة للأربعة قبله ؛ ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية للأربع

الأولى ، ويتحد القسيم الخامس مع خامس الأولى فى القافية :

ورقيب يرد اللحظ ردا ليس يرضى سوى ازدياد بعدا

ساحر الطرف مذ جنى الخد وردا إن يوما لناظرى قد تبدى

فتملا من حسنه تكحيلا

وتصدى من خشه فى استباق يمنع اللحظ من جنى واعتناق

أيأس العين من لحاظ اعتناق قال جفنى لصنوه لا تلاقى

إن بينى وبين لقياك ميلا

معانى الشعر وأخيلته

— ١ —

وجد الشعراء فى مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لا تنقطع ، ومدداً لا ينفد ، وذخراً لا ينتهى ، ومعينا لا ينضب . فتنوعت معانيهم ، واتسعت أفكارهم ، وانفسح مجال أخيلتهم ، وجادت تشبيهاتهم واستعاراتهم . ولا بدع فهم يعيشون فى مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ ، وتزخر بمختلف المشاهد والصور ، وتكتظ بمجالى الطرب والسمر ، وتشرق بمغانى اللهو والغزل والمجون .. ذلك إلى طبيعة جميلة مزدهرة الرياض ، مترقرقة الجداول ، هاتفة الأطيار ، عاطرة الأجواء .

هذه الحضارة المادية خليقة بأن تفتق أكمام القريحة ، وتفجر ينبوع الشاعرية ، عسية أن تفتح مغالق الفكر ، وتفسح مجال الخيال ، جديرة بأن تذكى الإحساس بالحياة ، وتنمى الشعور بالجمال .. وإنما تستمد التشبيهات من المشاهد ، وتتجدد بتجدد المناظر ، وتتعدد بتعدد الصور ، وإنما يحلق الخيال حين يتهيأ له الأفق الرحب ، وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجميل .

اقرأ أثر الحضارة فى التشبيه والخيال عند البحترى وهو يصف الحسان :

لما مشين بذى الأراك تشابهت ... أعطاف قضبان به وقدد
فى حلتى حبر وروض فالتقى ... وشيان وشى ربا ووشى برود
وسفرن فامتلأت عيون راقبها ... وردان ورد جنى وورد خدود

وضحكن فاغترف الأقاحى من ندى غض وسلسال الرضاب برود (١)

واقرأ وصف أبى نواس للعب بالصولجان والكرة :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالأبر
أو سمر الفارس فيها فانسمر بين رياض مثل موشى الحبر
مكللات بيهار وزهر فانقدبوا فى يوم قر وخصر (٢)
إذ در قرن الشمس فى غب مطر صوالجا يصبو إليها من نظر
فلم يعب طول ولا شان قصر وقد تنادوا فتراموا بالأكر
أحكمها صانعها لما فطر ألطف بالاشفاء خرزاً إذ دسر (٣)
فليس للاشفاء بالجلد أثر يحسبن تفاحا تدلى من شجر

وأبو نواس هو الذى ألبس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواء ثوب نعيم

ولقد كان القدماء يشبهون الحلم بالجبال ويزنونه بها :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ولكن المتحضر غير البدوى ، والحلم فى بغداد وفى القرن الثالث الهجرى غير الحلم فى البصرة وفى القرن الأول . فالحليم الحضرى هو الذى يبتسم لكبار الحوادث ، ويتحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظرفاً ، حتى كأنه برد رقيق الحواشى ، كهذا البرد الذى استعاره أبو تمام المتحضر للحلم الحضرى ، حيث يقول :

---

(١) أى لما ضحكن ظهرت أسنانهن كالأقحوان وقد امتلأ بالندى ، ندى الأسنان وريقها
(٢) القر : البرد . وكذا الحصر
(٣) فطر : شق . الاشفاء مخرز يثقب به . ودسر : ثقب وطعن .

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد (١)

وهكذا تعمل الحضارة المادية عملها في تنوع التشبيه ، وتعدد الاستعارة، وتجدد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

أما الحضارة العقلية التي أتيحت للشعراء العباسيين ، والتي كانت نتيجة الاختلاط والامتزاج ، والتأثر بمختلف الثقافات . فقد أثرت أثرها البالغ في معاني الشعر وأخيلته ، إذ أكسبتها ما امتازت به العقليات الأجنبية من عمق التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب المعاني ، وترتيب الأفكار . وظهر أثر اللقاح واضحا جلياً فيها ، من حيث الدقة والعمق ، والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب والتنسيق ، والتأثر بالمنطق وأقيسته ، والفلسفة وآرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فأمدته بالخيال الخصب ، والفكر العميق ، والمعنى الدقيق ، ولونته بألوان زاهية كثيرة من التشبيه والاستعارة ، وصبغته بأصباغ طريفة جديدة من الثقافة والفلسفة ، ومزجته بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .

ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرقص المطرب ، الذي يهز المشاعر ، ويطير بالقلوب . حتى قال أبو الفتح عثمان بن جني : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومتانة التعبير وحجة القول ، فإن المحدثين فضل المعنى الجيد ، والخيال المحلق ، والفكر المتسق .

— ٣ —

ويجمل بنا أن ندرس بشيء من التفصيل أهم ما طرأ على معاني الشعر

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين في كتابه (من حديث الشعر والنثر)

وأخيلته ، من مظاهر التأثر بهذه الحضارة

التجديد فى المعانى القديمة :

تناول الشعراء العباسيون معانى السابقين ، فتصرفوا فيها بما توحيه بيئتهم وحضارتهم ، وما يمليه تفكيرهم وثقافتهم ، وحوروا فيها بالزيادة والنقص ، والايجاز والأطناب والاجمال والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم ، وألبسوها ثوب الجدة والطرافة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريفة كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذوهم فى مضمار التنافس والسباق :

يصف النابغة قدرة النعمان ، ويبين أنه لا منجى منه ولا عاصم ، فيقول :

فانك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فيجد الشاعر العباسى أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان ينبغى أن يأتى النابغة بما لا قسيم له ، حتى يأتى بمعنى مفرد ، وهكذا يقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حبائله ... والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

ولو ملكت عنان الريح أصرفها ... فى كل ناحيـــة ما فاتك الطلب

ويقول البحترى :

ولو انهم ركبوا الكواكب لم يكن ... ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وكان الفرزدق يقول فى ناقته :

علام تلفتين وأنت تحتى ... وخير الناس كلهم أمامى

متى تأتى الرصافة تستريحى ... من الأنساع والدبر الدوامى (١)

(١) الأنساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرحل . والدبر بفتحتين : قرح الدابة جمع دبرة .

فيجعل جزاءها على بلوغ الممدوح أن يريحها من الأنساع والدبر ، أما أبو نواس فإنه يسخو فى الجزاء سروراً بلقاء الممدوح ، فيطلق راحلته ، ويحرم ظهرها على الركاب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافا من اللفظ والأسلوب :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

وكان الشعراء من قديم يصفون ممدوحيهم بالبأس والظفر فى القتال ، ويتخيلون أن الطير قد ألفت ظفرهم حتى إنها لتتبعهم فى كل غزاة ، وتحلق فوقهم فى كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستعدو معهم خماصاً وتروح بطاناً من لحوم الأعداء ، قال الأفوه الأودى :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار

وقال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

فقال أبو نواس :

تتأبى الطير غزوته ثقة بالشبع من جزره (١)

فكان فى إيجازه أبلغ مدحاً وأدق معنى . إذ صرح بأن شبعها سيكون من لحم أعدائه بقوله (من جزره) . ثم إنه لم يكتف بتحليقها وقت الغزوة ، بل جعلها تتأبى الغزو وتتقبعه .

أما مسلم بن الوليد فانه جعل ممدوحه يعود الطير الشبع ، إنها لتتبعه فى كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب :

---

(١) تتأبى : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل

ويجىء أبو تمام فيفصل هذا التفصيل :

وقد ظلات عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فيجعلها تنهل فى الدماء ، وتقيم مع الرايات ، وإن لم تقاتل ، وهذه زيادات لا بد أن تقع فى ذهن شاعر كأبى تمام يحلل ويستوعب .

وكان جرير يقول :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

فقال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فجعل ممدوحه الفرد العالم كله ، على حين جعل جرير القبيلة هى الناس كلهم ؛ على أن العالم أشمل وأعم من الناس ، وهكذا يكون بيت أبى نواس أبلغ وأعم وأبعد فى المبالغة ، إلى أنه سيق مساق الحكم والكلمات الجامعة .

ولقد قال المعذل بن غيلان قديماً .

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

فجاء أبو تمام وقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فزاد فى تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله : « ولو برزت . . . » فجدد بذلك المعنى ، حتى كاد يستبد به .

وهكذا تحس بجدة القديم ، وطرافة التليد ، وتشعر بحسن تصرف العباسيين فى المعانى القديمة ، حتى ليكادون يستقلون بها ، ويستبدون بنسبتها .

٢ — ابتكار المعانى وتوفرها :

أما المعانى الجديدة التى ابتكروها ابتكاراً ، واستنبطوها استنباطاً ، وخلقوها خلقاً ، فإنها تعيى الحصر ، وتفوق العد . ولا بدع فقد كثرت بكثرة المشاهدات ، وتعددت بتعدد المناظر ، وتنوعت بتنوع الحضارة ، وتلونت بألوان الثقافة . فكل ماجد فى حياة الشعراء من طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية وارفة ، وعادات طارئة ، ألهمهم جديد المعنى ، ومبتكر الخيال ، وكل ماوقع فى أفكارهم من ثقافة وحكمة وفلسفة أكسبهم استقصاء المعانى فى دقة وعمق تفكير . ولهذا زخر شعرهم وامتلأ أدبهم بكل جديد دقيق .

ألا ترى أبا تمام كيف يجعل عطايا الممدوح فى حاجة إلى تعويذة ؟ وما تعويذتها ؟ إنها نغمة الطالب ، وسؤال السائل :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار ؟ :

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لاترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وما رأيك فى هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح الخمر ولا يشربها خوفاً من الخليفة ، كقعدى الخوارج ، يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح ؟

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين القعكيما
كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما

ويقول أبو تمام فى فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ويصف أبو نواس كؤوس الصهباء ، فيبعث النشوة فى نفوس سامعيه :

فى كؤوس كأنهن نجوم دائرات بروجها أيدينا

طالعات مع السقاة علينا فإذا ماغربن يغربن فينا

وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إساءة الوانى ، فيأتى بجديد ، ويغرب فى التفكير :

ياواشياً حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق

ولا غرو فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وأخيراً يقول ابن الرومى :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم

فالموت إن نظرت وإن هى أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم

٣ — استقصاء المعانى وتحليلها:

ويتصل بهذه الدقة فى معانى الشعر العباسى ، تحليل المعنى وشرحه وتفصيله ، واستقصاء كل مايتصل به ، واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى كان هذا الاستقصاء يضطر الشعراء إلى الاستطراد . ومن هنا طالت أنفاسهم فى القصائد طولا يلفت النظر ، ويدعو إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر الثقافة والفلسفة واتساع الأفكار ، وتتابع المعانى بتتابع الصور والمشاهدات.

لقد مرت بنا — وستأتى — أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله

واستيفاء عناصره . وهذا مثل لإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، يتجلى فيه المعنى الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها العين من طول وصلها ... فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
وما كان هجرانى لها عن ملامة ... ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة ... أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فماذ من الميزاب والقطر بالبحر

وكان يكفى أبا تمام أن يكذب المنجمين الذين قالوا إن المعتصم لا يفتح عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمنجمين ، ولكنه أخذ يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وهكذا كانوا يشبعون المعنى ، ويحللونه ويفصلونه ، ويحتجون له بالبراهين والأدلة ، ويعرضونه فى صور مختلفة ، ومعارض متعددة ، ويقلبونه على كل وجه ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلسفة والعلوم العقلية من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أسعفتهم به الحضارة من وفرة المعانى والأفكار

ومازالت هذه الظاهرة تشيع وتتسع حتى بلغت نهايتها — وقد تم التأثر بالثقافة والحضارة — فى أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول طولا عجيباً ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعانى بالأدلة ، وعرضها فى مختلف الصور . وحسبك أن تقرأ قصائد ابن الرومى لترى كيف استقرت هذه الظاهرة فى شعره .

إن المجال لا يتسع لاستظهار طول نفسه فى القصيد ، ولكنا سنكتفى بمثال يتجلى فيه تحليل المعنى وشرحه والاحتجاج له.

قال يحسن الحقد ويزكيه:

أبن كنت فى حفظى لما أنا مودع ... من الخير والشر انتحيت على عرضى
لما عبتنى إلا بفضل إبانة ... ورب امرىء يزرى على خلق محض
ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها ... بل العيب أن تدان ديناً ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية ... توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع ... من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولولا الحقود المستكنات لم يكن ... لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى ... وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة ... فثم ترى شكراً على حسن القرض

٤ — قوة التصوير وبعد الخيال :

وقد وجد الشعراء فى الحضارة المادية ينبوعاً ثجاجاً للصور ، وأفقاً فسيحاً للخيال ، وأعانهم الحضارة العقلية بأفكارها العميقة ، وخيالاتها المبدعة ، وتصاويرها الفنية ، على أن يأتوا بكل عجيب يبهر ببراعة الوصف ، ويسحر بروعة التصوير ، ويطير بالألباب فى مطارح الخيال .

يقول بشار فى وصف الجيش والقتال وهو أعمى :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطى حمر ثعالبه (١)
غدونا له والشمس فى خدر أمها ... تطالعنا والظل لم يجر ذائبه

(١) الحصى : العدد الكثير : الشوك جمع شوكة ، السلاح ، الخطى : الرمح النسبة طرف الرمح .

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

واقرأ هذه الصورة الرائعة للهيبة من جلال الممدوح، التى صورها البحترى فاستوفى كل عناصر الاجلال والجلال ، وجمع كل ألوان العظمة والمجد، إذ صور الحجاب يقومون على سدة الممدوح ، فلا يدخلون أحداً إلا بأذن ، فاما أذن له ودخل ، لم يدر كيف دخل ، لما طالعه من هيبة ، وغمره من جلال ، فانعقد لسانه، وبهر جنانه ، ولم ينطقه إلا ما آنسه من بشاشة الممدوح ، وتهلل أساريره ، وحينئذ دنا فقبل يده ، بل قبل الندى فى يده ، بل فى يد امرىء كريم محياه، سباط أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
وسلمت فاعتاقت جنانى هيبة تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثنى إلى ببشر آنستنى مخايله
دنوت فقبلت الندى فى يد امرىء كريم محياه سباط أنامله

وسنقرأ كثيراً من وصف البحترى الذى تتجلى فيه البراعة وروعة التصوير فلنرجع إلى بشار لنرى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كأن فؤاده كرة ترامى حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شىء مخافة أن يكون به السرار
جفت عينى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

ونترك هذه الصور الواضحة مع مافيها من براعة الوصف ، وسمو الخيال ، ونتزود منها بوصف البحترى لثواؤ الثغر ولؤلؤ الحديث :

ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رائى الدر حسناً ولا قطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

إلى أبى تمام حيث يمثل مذهب الغموض فى الصور ، والاغراق فى التصوير ، والشرود فى الخيال ، وحيث تطالعنا فى شعره تلك الاشباح المتجهمة والصور القاتمة ، على ما فيها من سحر تصوير ، وتهاويل خيال .

ولا بدع فأبو تمام يتنفس الدم فى معانيه ، لأنه غرق فى الفلسفة إلى أذنيه وكان أكثر الشعراء تأثراً بها . ولئن كان البحترى قد تتلمذ عليه فإن طبيعته البدوية لم تسغ هذه الفلسفات العميقة ، ومن ثم وقف تأثره به عند الجوانب الظاهرة .

لقد برع الشعراء العباسيون فى التصوير وتجسيم الخيال ، وإلباس المعنويات ثوب المحسيات ، وإنطاق الطبيعة والجماد ، حتى لترى الروض يتحدث ، والجماد يتحرك . ولكن أبا تمام أوغل فى ذلك التجسيم ، ولم يكتف بذلك ، بل ركب فى الصور ، ومزج بين الاستعارات . فالصورة تعتمد على صورة ، والاستعارة تبنى على استعارة ، وكل ذلك يلتف على ما كان يولع به من جناس وطباق ونحو ذلك من ألوان التصنيع ، حتى جلل الغموض معظم صوره .

قال يصف السحاب ويخلع عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا يدا قالت الدنيا أتى قاتل المحل

إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى له تبعا أو يرتدى الروض بالبقل

إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال يصف روضا :

ومعرس للغيث تخفق فوقه رايات كل دجنة وطفاء

نشرت حدائقه فصرن مآلفا لطوائف الأنواء والأنداء

فسقاه مسك الطل كافور الندى وانحل فيه خيط كل سماء

فقد عبر عن السحب التى يتلألأ البرق فى أطرافها بالرايات المطرزة التى تخفق بالريح . ولكن ماهذه الصورة المركبة فى الشطر الأول من البيت الثالث؟ أما مسك الطل فهو رائحة الروض المطرية التى تكون بعد الطل ، وأما كافور الندى فهو الرشاش الذى يكون على أوراق الروض كالكافور . إنها صورة معقدة على كل حال .

وانظر كيف يعطى لصوره ألوانا حسية ملموسة :

كأن سواد الليل ثم اخضراره طيالسة سود لها كفف خضر

لاتبعدن أبدا وإن تبعد فما أخلاقك الخضر الربى بأباعد

نضى ضوؤها صبغ الدجنة فانطوى لبهجتها ثوب الظلام المجزع

راحت غوانى الحى عنك غوانيا يلبسن نأيا تارة وصدودا

واقرأ هذا التشخيص:

حتى إذا اسود الزمان توضحوا فيه فغودر وهو فيهم أبلق

لدى ملك من أيكة الجود لم يزل على كبد المعروف من فعله برد

سلوت إن كنت أدرى ماتقول إذن جعلت أنملة الأحزان فى أذنى

تطل الطلول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل

دوارس لم يجف الربيع ربوعها ولا مر فى أغفالها وهو غافل

وأخيرا يقول فى وصف الربيع:

لما بكت مقل السحاب حيا ضحكت حواشى خده الترب

فكأنه صبح تبسم عن سحر ضئيل فى ضحى شحب

فإذا انتهينا إلى آخر هذا العصر ، وجدنا فن التصوير الشعرى يستكمل كل أدواته وأصباغه ، ورأينا الشاعر يتخير لموضوعه مايناسبه من المرائى المتعددة

والمشاهد المتقابلة ، التى تمر أمام ناظره ، ورأينا الحضارة وقد صقلت حسه ، وفتقت ذهنه ، والثقافة وقد أورثته الدقة وعمق التفكير . حتى نرى فنه قد استوى واستكمل عناصره .

هذا ابن الرومى يسلط عدسة تصويره على أحدب ، فلا يترك عنصراً ولا يدع لوناً أو ظلا ، وإنما يستوفى كل ذلك حتى تخرج الصورة ناطقة واضحة . فعنق الأحدب قصير لقصر أخدعه أى عرقه ، ومؤخر رأسه غائب وغائص بين كتفيه ، وهو متوقع أن يصفع ،وذلك مما يزيد فى انكماشه خوفاً من الصفع بل كأنه صفع قبل ذلك فذاق ألم الصفع ، فهو لذلك أشد انكماشا :

قصرت أخادعه وغاب قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحسن ثانية لها فتجمعا

أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة ؟ . . . إنه فن التصوير عند ابن الرومى . اقرأ تصويره لمغن قبيح الصوت :

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التغنم فكى بغل طحان

وتصويره للبخيل :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

٥ — التأثر بالفلسفة والثقافات المختلفة :

ومن الظواهر التى نلاحظها فى الشعر العباسى تأثره فى معانيه بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات المتنوعة التى اصطبغ بها هذا العصر ، ولو ذهبنا نتبع هذه الظواهر لطال بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، فحسبنا أن نعرض بعضها الآن :

يقول أبو تمام :

فلو صح قول الجعفرية فى الذى تنص من الألهام خلناك ملهما

والجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الألهام .

ويقول أبو نواس متأثراً بالثقافة الهندية التى عمادها النجوم والرياضة ، فى وصف الخمر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بهـا المدار

يريد أنهـا تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة فى برج ثم سيرها من هنـاك .

ويقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

والهند يزعمون أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً .

وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحا فى الحكم الكثيرة التى كانت تنقل عن الفرس ، حتى ليقال إنه اجتمع فى ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم . كما كان تأثيرها جلياً فى الصور والأخيلة الدقيقة . إذ كان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ما ذكروا من أن كسرى كان يقول فى وصف النرجس : إنه ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسى ، وقال :

وياقوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد

كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

ويقول أبو العتاهية فى الزهد والحكم :

ياعجباً للناس لو فكروا	وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها	فإنما الدنيا لهم معبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى	غداً إذا ضمهم المحشر
عجبت للانسان فى فخره	وهو غداً فى قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة	وجيفة آخره يفخر

أما الثقافة اليونانية فهى أعمق أثراً ، وأوسع مدى فى معانى الشعر ، لما امتازت به من الدقة والعمق والتحليل .

فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الضحاك بعناصر أفلاطونية ، وتظهر فيه الصياغة الذهنية :

إن من لا أرى وليس يرانى	نصب عينى مثل بالأمانى
بأبى من ضميره وضميرى	أبداً بالمغيب يلتقيان
نحن شخصان إن نظرنا وروحا	ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ما هممت بالأمر أو هم	بشىء بدأته وبدانى
كان وفقاً ما كان منه ومنى	فكأنى حكيته وحكانى

ويقول أبو نواس فى الخمر :

وقد خفيت من لطفها فكأنها	بقايا يقين كاد يذهبه الشك

ويقول :

صفت وصفت زجاجتها عليها	كمعنى دق فى ذهن لطيف

ولقد حكى الآمدى أن بعض نقدة الشعر سمع قول العباس بن الأحنف :

وصالكمو هجر وحبكمو قلى	وعطفكمو صد وسلمكمو حرب
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة	وكل ذلول من مراكبكم صعب

فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقليدس[1] .

ويقسم بشار العمى على هذا النحو :

وعمىٌ الفعال كعمى المقال وفى الصمت عى كعى الكلام

وتستمر فى هذا التتبع ، فتجد الفلسفة بغموضها وعمقها وتناقضها تسرى إلى المعانى، فتجمع بين المتنافر، وتؤلف بين الأضداد ، وتأتى بالغريب العجيب.

كيف يهلك الشىء نفسه ؟ . يقول أبو تمام :

صيغت له شيمة غراء من ذهب لكنها أهلك الأشياء للذهب

وما ذا تنتظر من أبى تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلام منيراً ، والصحو مطراً ، والمطر صحواً :

بيضاء تسرى فى الظلام فيكتسى نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يمطر

إنه أبو تمام الذى يجمع بين المتنافرات، ويأتى بالمعنى الغريب غير المألوف ، ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى فى أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكن يلذ طعم العطاء

فتجد فكرة طريفة وقعت فى ذهن الشاعر العباسى ؛ إذ يجعل العطاء بدون غاية مألوفة .

٦ — ١ — تحدام البراهين العقلية ومسوح التعليل :

وكأنهم أحسوا بهذه الغرابة غير المألوفة ، وهم فى مجتمع يموج بالحوار

(١) اليتيمة ١ / ١٦٦

والنقاش ، فاحتاجوا إلى البراهين العقلية ، والأقيسة المنطقية ، يدعمون بها المعنى الغريب العميق ، ويقربونه إلى المألوف .

قال بشار يشرح الأعضاء عن هفوات الصديق ، ويبرهن على خطأ تتبعها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنب تارة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام هذا الدليل :

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

وأبو تمام هو الذى يقول :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد

فانى رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ويقول :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

ويقول البحترى :

دنوت تواضعاً وعلوت مجدا ... فشأناك انحدار وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

ويقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها ... خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن دراري الكواكب أن ترى ... طوالع في داج من الليل غيهب

ولهذا شاع في شعرهم حسن التعليل ، وكثر في أدبهم كثرة ظاهرة .

قال أبو تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ ... ـدي الرزايا إلى ذوي الأحساب
فلهذا يجف بعد اخضرار ... قبل روض الوهاد روض الروابي

ويقول :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي

وتطرد هذه الظاهرة ، حتى نرى الشعراء يكلفون بها تبعاً لتكلفهم بتعليل المعاني وشرحها . فنجد ابن الرومي يطلع علينا بمعنى جديد ، إذ يجعل الاسهاب في الثناء والمدح هجاء للممدوح ، ويعلل ذلك أحسن تعليل ، ويفسره بأن المادح يرى أنه لا ينتزع عطاء ممدوحه بسهولة لبخله ، بل لابد من أن يطيل الأسباب ليصل إليه ، كما يطيل الحبل إذا استقى من بئر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرء لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

ووجدناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد

٧ — كثرة الحكم والأمثال :

وقد شاعت الحكم والأمثال فى شعرهم ، اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واختراعاً واستنباطاً وقد كان فى شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب ومثلها للعجم كما قلنا ، وكان لأبى العتاهية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .

قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وقال صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضراً ... بعد الذى أبصرت من يبسه

٨ — المبالغة والتهويل :

وهى ظاهرة تشيع فى شعر المولدين ممن خالطوا الفرس أو نبتوا من أصول فارسية ، وللفرس غرام بالمبالغة ، وولع بالتهويل والاغراق ، وقد كان لشعرائهم ورجالاتهم فى هذا العصر مقام كبير لدى الخلفاء ونفوذ عظيم ؛ دفعا الشعراء الآخرين إلى محاكاتهم والتأثر بهم فانساق الجميع إلى المبالغة ، وأكثروا منها

فى المدح بنوع خاص ، طمعاً فى جزيل الهبات ، وسنى الجوائز .

وينبغى ألا نغفل سبباً آخر ساعد على المبالغة والغلو ، ذلك هو تزاحم المعانى وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة ، واتساع مناحى التفكير بتأثير الثقافة والفلسفة ؛ وتسابق الشعراء وتنافسهم فى ميدان الحظوة والعطايا .

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محتفظة بشىء من التعقل والاتزان ، حتى كان العصر التالى ، فجانبت كل إمكان ، وجافت كل مألوف ، واندفع فى تيارها جميع الشعراء .

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة ، ولا يطربهم إلا التهويل ، وقد مر بنا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المعتصم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور النمرى فى الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع . . إلخ

فقام محمد بن وهيب وأنشد قصيدته :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

وفيها يقول :

فالخلق جسم له رأس يدبره ... وأنت جارحتاه : السمع والبصر

واقرأ وصف أبى تمام للمعتصم يوم عمورية ، واعجب واطرب لهذه المبالغة : جيش من الرعب يتقدمه إلى الأعداء فيفزعهم ، ونفسه وحدها جيش يغنيه عن قيادة الجيوش :

لم يغز قوما ولم ينهض إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها فى جحفل لجب

ولكنها مبالغة معقولة ، فكم من بطل نصر بالرعب ، وغزا بقوة الروح وبسالة العزيمة .

ويقول البحترى فى المتوكل :

فلو آن مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر

فتجد مبالغة ولكنها فى حدود الامكان .

ويقول أبو نواس فى الهجاء :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى ... وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر

يبيتها للعتفى بفنائهم ... ثلاث كنقط الثاء من نقط الحبر (١)

إذا ما تفادوا بالرحيل سعى بها ... أمامهم الحولى من ولد الذر

ولو جئنها ملآى عبيطا مجزرا ... لأخرجت مافيها على طرف الظفر

ويقول بشار الضخم :

إن فى بردى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

ومهما يكن من شىء فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التى ظهرت فيما بعد فى شعر المتنبى وغيره .

٩ — تمحيص الأفكار وترتيبها :

وأخيرا لقد تهيأ لشعراء هذا العصر من أسباب الحضارة وألوان الثقافة وعمق الفلسفة ودقة المنطق ، مانمى أذواقهم ، ورق إحساسهم ، وهذب أفكارهم ، ونسق معانيهم ، فجاءت أفكارهم محصة ، وعناصرهم منظمة ، ومعانيهم متسقة مرتبة . نقرأ قصائدهم فلا نجد نبوا فى الفكرة ، ولا خللا فى المعنى ، ولا اقتضابا فى الغرض ، ولا اضطرابا فى السياق ، وإنما نجد القصيدة بناء واحدا ، وهيكلا سليما ، وموضوعا متلاحم النسج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقرأ كثيرا من القصائد ، يتبين لك فيها حسن الربط بين

(١) يريد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حواملها الذر كنقط الثاء .

المعانى لكثرتها عندهم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب ، كما يتجلى لك فيها التمحيص والتهذيب من شغفهم بالغوص على المعانى واستيفاء عناصرها ، وترتيب نتائجها على مقدماتها .

وهنا تتجلى براعتهم فى الانتقال من غرض إلى غرض ، بما يسمى «حسن التخلص» وهو يعتمد خلق المناسبة بين المعنيين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوحد بينهما فى رفق ولطف ودقة ، فلا يكون بينهما شرود أو تقطع أو اقتضاب .

استهل أبو تمام قصيدته فى مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه ... خلق الأمام وهديه المتنشر

وكان أبو نواس يقول :

تقول التى من بينها خف مركبى ... يعز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى من جريهن غدير
دعينى أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيها الخصيب أمير
فتى يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم أن النائبات تدور

وقال مسلم فى يحيى وجعفر :

أجدك هل تدرين كم رب ليلة ... كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة ... كغرة يحيى حين يمدح جعفر

وقال البحترى :

رياض تردت بالنبات مجودة ... بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا راوحتها مزنة بكرت لها ... شآبيب مجتاز عليها وقاصد

كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت عليها بتلك البارقات الرواعد

وكان من مظاهر ذلك: العناية بمطلع القصيدة ، وجعله مناسباً للمقام، مشير
مقصود ، كما في قصيدة « عمورية » لأبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

والاهتمام كذلك بختامها ، وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متمما للمعنى
ل نحو قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل

وإن كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذى يكتنفه ، والأفق الذى يظله ، والبيئة التى تنشئه ، والعصر الذى يعيش فيه . ولا شك فى أن لكل بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها ، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع حياته ، ونظام تقاليده وعاداته ، ولكل عصر تأثيره فى حياة الناس وأذواقهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتتقلب بتقلب الأزمان ، وتتطور بتطور المجتمع ، وتتأثر بالحضارة أو البداوة ، وبالجهل أو العرفان .

وفى العصر العباسى تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ، وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلاط عادات ، وجدت فى المجتمع تقاليد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتجه اتجاهاً جديداً ، وتتخذ طابعاً يلائم ما يوحى به العصر من موضوعات :

١ — فهناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم ، ولا تتسق مع مدنيتهم ، وقد وجدوا فى مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يغنيهم عنها ولذلك هجروها ، بل سخروا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتتبع الآثار ، ونعت الناقة ، ووصف الصحراء ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد ظل على وفائه للقديم ، ورأى أن القول فى هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربى ، وحفظ لعمود القصيد .

ولقد رأينا حملة أبي نواس على هذه الموضوعات ، وسخريته منها ، وإحلاله وصف الخمر وإعلان محاسنها محلها . . وما زال سادراً في نشوته وتهوره ، حتى حبسه الرشيد ، فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحا على نعت القفار ، ولكنها صحوة مخمور يهذي ويسخر ، حيث يقول :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلط ... تضيق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة ... وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا

٢ — وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحت بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعارف والعلوم . وذلك كالغزل بالمذكر ، ووصف العذار ، والخوض في الدعابة والمجون ، والرمي بالآبنة ، والذم بالرشوة ، وهجاء المغنين ، والتعصب لبعض أنواع الزهر ... ثم نظم القصص والحكايات التهذيبية ، ونظم قواعد العلوم من فقه وغيره ، فيما بعد .

٣ — أما الأغراض القديمة الأخرى كالمدح والهجاء والرثاء ، والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والسياسة والزهد ، والحكمة والمثل ونحوها . فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها ، وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والمبالغة والتهويل .

وها هي ذي أهم أغراض الشعر في هذا العصر :

الغزل :

أما الغزل بالمؤنث فيكاد يكون كله إباحيا في هذا العصر ، وماذا ننتظر من مجتمع تشيع فيه مفاتن المدنية ، ومفاسد الحضارة ، وتنتشر مجالي اللهو

والعبث والمجون ، إلا أن تستعر فيه للشهوات ، وتثور الغرائز ، وتتفتح مغالق الميول والنزوات ؟ لهـــذا كاد الغزل العذرى يموت إلا على بعض الألسنة كالعباس بن الأحنف . أما عامة الغزلين ، فقد تبذلوا فى وصف المرأة ، وتهروا فى الحديث عنها ، وأمعنوا فى هتك حجاب العفة ، وأفحشوا فى تناول العورة ، وأعلنوا كل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا كل سوأة .

ألم يقل بشار :

أمتى بدد هـــذا نقبى ووشاحى حـله حتى انتثر
فدعينى معـــه يا أمتا علناً فى خلوة نقضى الوطر
أقبلت مغضبـة تضربهـــا واعتراها كجنون مستعر
بأبى والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر

وأما الغزل بالمذكر فقـد قلنا إنه غرض جديد طرأ على الشعر العباسى ؛ وهو رجمة من رجم الفرس ، ووباء من أوبئتهم ، سرى إلى العرب بعدوى الاختلاط . وأول من قارف هـذا الإثم ، وابتدع القول فيه : حماد عجرد ، ووالبة بن الحباب ؛ ثم أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس ، وغيرهم من الشعراء الإباحيين ، الذين كانوا يلتقون على موائد الشراب ، وبين أيديهم الغلمان والقيان ، فلا يتورعون عن إثم ، ولا يكفون عن هزل ، ولا يزعهم خلق أو دين . . وسرت هذه الموجة إلى الشعراء الغزلين حتى طغى الغزل بالمذكر على كل قول ، وغلب على كل لسان ، وغرق فى هذه اللجة من كان يتغزل بالمؤنث ، فجعل ضمير الأنثى مذكرا .

وقد نجم عن ذلك ما جد فى هذا العصر من وصف العذار والافتتان فيه ، كما نشأ عنه تقاذف الناس باللوطية ، وتنابزهم بالألبنة ، وترامیهم بالغلمان ، حتى شاهت صفحة الأدب بهذا العهر ، وندى جبين الشعر خجلا من هذه الدعارة

ولا بدع فذلك عصر انطلقت فيه الشهوات، وأفلتت الغرائز، واتسع معنى الحرية

يقول أبو نواس:

يا بدعة فى مثال يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام بين ظبى فلاة
والقد قد غلام والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات

ويقول الحسين بن الضحاك فى غلام يستحم:

وابأبى أبيض فى صفرة كأنه تبر على فضة
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بضة
غصن تبدى يتثنى على مأكمة مثقلة النبضة (١)
كأنما الرمش على خده ظل على تفاحة غضة
صفاته فاتنة كلها فبعضها يذكرنى بعضه

واستعمل أبو نواس لفظ المذكر فى المؤنث فقال:

يا قمرا أبصرت فى مأتم يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدمع من نرجس ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لى كارها برغم دايات وحجاب (٢)
لاتبك ميتا حل فى قبره وابك قتيلا لك بالباب

المرح:

أبنا فيما سبق كيف كان الخلفاء فى هذا العصر يتمتعون بالنفوذ الواسع

(١) المأكمة: اللحمة على رأس الورك والانسان مأكمتان
(٢) المأتم: مجتمع الناس فى الخير والشر

والجاه العريض ، ورأينا كيف كان كلفهم بإظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ، وإطراء مجدهم ، فقربوا الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليعلنوا مفاخرهم على الناس ، ويزيدوا من هيبتهم فى نفوس العامة . فأخذ الشعراء يتنافسون فى التمجيد ، ويتسابقون فى التعظيم ، ليحظوا بجزيل العطاء وعظيم الهبات . وقد انتهى بهم ذلك إلى المبالغة فى المدح حتى قاربوا الكفر ، والتهويل فى الثناء حتى خرجوا عن المعقول .

وإنما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة ، رغبتهم فى إرضاء غرور الممدوحين وطمعهم فى أن ينالوا أكبر الجوائز وأسناها ، فقد كان العطاء على قدر المبالغة ، وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرقون فى العطاء ، ويسرفون فى المنح ، حتى أثرى الشعراء ، واقتنوا الثروات الطائلة ، والضياع العامرة .

ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعراء إلا من يمدحه بمثل مدح الثمرى للرشيد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذى قال فى مدح الحسن بن سهل :

تعظمه الأوهام قبل عيانه ... ويصدر عنه الطرف وهو محاذر
به تجتدى النعما وتستدرك المنى ... وتستكمل الحسنى وترعى الأواصر
قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا ... فمالك موتور وسيفك واتر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا ... لما انتسبت إلا إليك المفاخر

حتى طرب الحسن ونزل عن سريره إلى الأرض ، وقال : أحسنت والله وأجملت ، ولو لم تقل فى ولا قلت باقى دهرك غير هذا لما احتجت الى القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه لنفسه .

كما رأينا أن جلساء المعتصم لم يقنعوا بتشبيه أبى تمام له بحاتم فى الكرم ، وعمرو بن معديكرب فى الشجاعة ، وإياس فى الذكاء ، فانتقدوه ، حتى اضطر للاعتذار

وهكذا كان المدح يهز أعطافهم ، ويثير أريحيتهم ، ويستدر عطاءهم . وهكذا كان الشعراء يمعنون فى المبالغة ، ويهولون فى تصوير الممدوح ، لأنهم يرون ذلك السحر الذى يخلب العقول ، والرقى التى تختلب الصلات .

وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطاء ، ويهون عليهم أمر الدين ، فيمدنون من الشرك أو يتمون فيه . كما قال أبو نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وكما يقول :

حتى الذى فى الرحم (لم يك صورة) لفؤاده من خوفه خفقان

وقد ظل الشعراء يبالغون فى المدح ، ويغرقون فى الثناء ، وينافس بعضهم بعضا فى ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتتسع فيما بعد ، وتبلغ نهايتها فى الغلو والتهويل .

ولقد ذكروا أن المستعين بالله قال لشعرائه : لا أقبل الا ممن قال مثل قول البحترى :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى اليك المنبر

فقال البلاذرى: قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى، فقال هات، فأنشده :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن لظن البرد أنك صاحبه

وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه

فقال المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما آمرك به ، فرجع ، فبعث إليه سبعة آلاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

شعر السياسة والعصبية :

١ — ورثت الدولة العباسية ما خلفه العصر الأموى من إحياء العصبيات

بين اليمانية والمضرية ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطرمة ، لا يخبو لها ضرام ، ولا تهدأ ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقين يتراشقون بالهجاء ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء اليمانية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضرية الحكم بن قنبر.

قال مسلم يفاخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخـ ـر قريش وفخرها مستعار
ذكرت عزها ، وما كان فيها ـ قبل أن تستجيرنا ـ مستجار
إنما كان عزها فى جبال ترتقيها كما ترقى الوبار (١)
أيها الفاخرون بالعز والعز لقوم سواهمو والفخار
أخبرونا عن الأعز : أألمنـ ـصور حين اعتلى أم الأنصار
فلنا العز قبل عز قريش وقريش تلك الدهور تجار

٢ — وكان الموالى فى العصر الأموى يكنون الحقد للعرب ، ويضمرون لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والاشادة بمفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن حريتهم كانت مكبوتة ، بحيث لم يجترىء على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فلما تنسموا نسيم الحرية فى العصر العباسى ، واعتد الخلفاء بهم هذا الاعتداد الذى عرفناه . بدأوا يجهرون بالعداوة ، ويعلنون المثالب ، ويذيعون مفاخرهم وأمجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظهر بوضوح بين العرب والعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعر .

وكان من شعراء الموالى الشعوبيين : بشار وديك الجن والخريمى والمتوكلى ، وسنتحدث عن الشعوبية فى كلمة خاصة .

---

(١) الوبار بكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهى دويبة كالسنور

٣ — وكان الشعر السياسى يأخذ مكانه بين هذه العصبيات ، ويحتل أرفع المنازل ، لأنه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبنى العباس شعراء يعتمدون عليهم فى إذاعة محامدهم ، والاحتجاج لهم فى استحقاق الخلافة ، وأولويتهم بها دون بنى على . ومنهم : مروان بن أبى حفصة وعلى بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد .

وكذلك كان للعلويين شعراؤهم الذين يردون عنهم ، ويتعصبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ، ويلاحون شعراءهم المتعصبين . ومنهم السيد الحميرى ودعبل الخزاعى ، ومسلم بن الوليد .

قال مروان بن أبى حفصة يخاطب بنى على :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم به ... ودعوا وراثة كل أصيد سامى
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام

وقال الحميرى وكان علوياً :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد ... ولا عهده يوم الغدير المؤكدا
فإنى كمن يشرى الضلالة بالهدى ... تنصر من بعد التقى وتهودا
ومالى وتيم أو عدى وإنما ... ألو نعمتى فى الله من آل أحمدا
وإن امرأ يلحى على صدق ودهم ... أحق وأولى فيهمو أن يفندا

ولقد أحسن الرشيد إلى دعبل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه وأركبه ، حين سمع بعض المغنيات تغنى من شعره :

أين الشباب وأية سلكا ... لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبى يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى
يا ليت شعرى كيف يومكما ... يا صاحبى إذا دمى سفكا

لا تأخذوا بظلامتى أحـداً قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

فلم يخفف هذا من عصبية دعبل للعلويين ، ولم تنسه المكافأة السخية حقده على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجوه :

وليس حى من الأحياء نعلمهم من ذى يمان ولا بكر ولا مضر
إلا وهم شركاء فى دمائهمو كما تشارك أيسار على جزر(١)
قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر(٢)
أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبنى العباس من عذر
اربع بطوس على القبر الزكى إذا ما كنت تربع من دين على وطر
قبران فى طوس: خير الناس كلهمو(٣) وقبر شرهمو ؛ هذا من العبر
ماينفع الرجس من قرب الزكى ولا على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ مرهون بما كسبت له يداه فخذ ماشئت أو فذر

الخمريات :

لم يكن وصف الخمر وتحسينها والدعوة إليها بالشىء الجديد الذى طرأ على العصر العباسى ، فقد تغنى بها الشعراء منذ وجد الشعر ، وإنما الجديد فى هذا العصر هو الإغراق فى وصفها ، والمبالغة فى نعتها ، والاسراف فى الحديث عنها والدعوة إليها ، ثم استقلال القصيدة بها ، أو استهلالها باطرائها ، بدلا من ابتدائها بالدمن والاطلال .

وقد كانت فيما سبق تذكر بجانب غيرها من أغراض القصيد ؛ فلم تكن

---

(١) الايسار : لاعبو الميسر ، والجزر : النوق يقامرون عليها
(٢) الخزر بفتح الخاء والزاى جيل من الناس ضيقو العيون .
(٣) يريد قبر موسى الكاظم .

فناً مستقلا من فنون الشعر . وكان الشعراء يلمون بها إلماماً ، ويتحدثون عنها فى غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو الهندى عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحى من مخضرمى الدولتين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخلق ، مدمناً للخمر ، فأخذ يشيد بها ويحض عليها ويزينها للناس ، كما فى قوله :

قل للسرى أبى قيس أتهجرنا ... ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت ... فيك الشمول لما فارقتهـــا أبدا
ولا نسيت حميـــاها ولذتها ... ولا عـدلت بهـا مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس وندمانه ، فقدموها فى المطالع ، وأفردوا لها القصائد ، وأمعنوا فى نعتها ما وسعهم الامعان ، وأغرقوا فى مدحها ما وجدوا السبيل إلى الاغراق ، وأكثروا من القول فيهـا حتى غلبت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله أبو نواس فيها بضعة آلاف من الأبيات .

فمن قال يصف مجلس الشراب وآنيته :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جـديد ودراس[1]
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان : جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم ... وإنى على أمثـال تلك لحابس
ولم أدر من هم غير ما شهدت به ... بشرقى ســاباط الديار البسابس
أقمنا بهـا يوماً ويومين بعده ... ويوما له يوم الترحـــل خامس
تدار علينـا الراح فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصـاوير فارس
قرارتهـا كسرى وفى جنباتهـا ... مها تدريهـا بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبهـا ... وللماء ما دارت عليه القـلانس

---

(١) كان قد خرج مع بعض صحبه إلى المدائن فرأى بساباط آثاراً تدل على أن هذا المكان كان يجمع بين ندمان أقاموا به وترحلوا ، فهو يصف ذلك .

ومن فرائده الخمرية :

يا شقيق النفس من حكم ... نمت عن ليلى ولم أنم (١)
فاسقنى البكر التى اختمرت ... بخمار الشيب فى الرحم (٢)
ثمت انصات الشباب لها ... بعد ما جازت مدى الهرم (٣)
فهى لليوم الذى بزلت ... وهى ترب الدهر فى القدم (٤)
عتقت حتى لو اتصلت ... بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم ماثلة ... ثم قصت قصة الأمم
قرعتها بالمزاج يد ... خلقت للسيف والقلم
فى ندامى سادة زهر ... أخذوا اللذات من أمم
فمشت فى مفاصلهم ... كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت اذ مزجت ... مثل فعل الصبح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها ... كاهتداء السفر بالعلم

الهجاء والمجون :

أما الهجاء الذى تدعو اليه العصبية ، وتثيره الخصومات السياسية ، فقد كان شيئاً مألوفاً معروفاً من قديم الزمان . وقد انساق الشعراء العباسيون فى ميدانه كغيرهم ، فظهر فى شعرهم السياسى ، وتجلى فى تعصبهم القبلي ، واستعملن فى أحقادهم الشعوبية كما أسلفنا .

---

(١) حكم : خلاف من اليمن ينسب اليه أبو نواس .
(٢) خمار الخمر ما يعلوها من الزبد .
(٣) انصات : أجاب .
(٤) بزلت بالمجهول : صبت وسالت .

وإنما نعنى ذلك اللون الجديد من الهجاء الذى لم تدع اليه عصبية ، ولم تثره خصومة سياسية ؛ وانما كان مرجعه الى السخرية والتنادر والتهكم ، إزجاء للفراغ وإظهاراً للبراعة فى التقبيح وتوليد المعانى فيه .

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفاسد ، وذيوع المثالب ، وكثرة الفجور كما كان من آثارها ارتقاء الأذواق ، حتى لم تعد تسيغ كثيراً من المناظر المألوفة من قبل ، أو ترضى عن كثير من العادات الشائعة حينذاك .

فلما ضعف الوازع الدينى ، وتوفرت أسباب الراحة ، واتسعت أوقات الفراغ ، ولان جانب العيش . وجد الشعراء فى هذه السوءات والمثالب والمفاسد ؛ وفى تلك المناظر الشاذة ، والعادات القديمة ، مادة واسعة للهجاء ، ومنبعا فياضاً يستمدون منه ما يتندرون به فى مجالسهم ، ويتفكهون فى أسمارهم ومايتسابقون فيه من اظهار البراعة فى الوصف والابداع فى السخرية والأضحاك .

ولقد راحوا يتتبعون العورات ، ويتقصون العثرات ، ويترصدون للعيوب ، ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك ، كما راحوا يذمون اللحى ، ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة ، ويستهجنون أصوات المغنين ، ويسخرون من عادات المتزمتين . وصاغوا ذلك كله فى شعر مقذع مضحك ، يغريك بالضحك من التصوير قبل أن يغريك بالأشفاق على من قيل فيه .

وهكذا شاع المجون وانتشرت سمومه ، بسبب المدنية والاباحية وضعف وازع الدين . قالوا إن مطيع بن إياس مر بيحيى بن زياد وحماد بن اسحق ، فقال لهما : فيم تتحادثان ؟ قالا : فى قذف المحصنات ، فقال : أفى الأرض محصنة تقذفانها ؟

قال بشار يهجو بخيلا :

كأن عبيدالله لم يلق ماجدا ... ولم يدر أن المكرمات تكون

اذا جئته فى حاجة سد بابه ... ولم تلقه إلا وأنت كمين

وقال يهجو المهدي مشيراً إلى تفرد وزيره يعقوب بتدبير الأمور :

بنى أمية هبوا طال نومكو ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خلافة الله بين الزق والعود

ويقول أبو نواس يهجو بخيلا :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه ... يقلبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كمه فيشمه ... ويجلسه فى حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله ... فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب ... وتكسر رجلاه وينتف شاربه

ويقول كذلك فى قدر بخيل :

يغص بحلقوم الجرادة صدرها ... وينضج ما فيها بعود خلال
وتغلى بذكر النار من غير حرها ... وتنزلها عفواً بغير جمال

ويهجو البحترى الخثعمى بكبر الأنف فيقول :

رأيت الخثعمى يقل أنفاً ... يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعدا فقصر كل سام ... لهيبته وغص به الهواء
هو الجبل الذى لولا ذراه ... إذن وقعت على الأرض السماء

ومن أمثلة المجون ما ذكروا من أن جماعة اجتمعوا يوماً بدار رجل يقال له صالح ، فسقط على سطح الدار ديك طار من بيت دعبل الخزاعى الشاعر ، فذبحوه وشووه وطعموه ، ثم خرج دعبل يسأل عن الديك ، حتى عرف مصيره فغدا إلى المسجد وصلى ، ثم جلس على بابه ينشد :

أسر المؤذن صالح وضيوفه ... أسر الكمى هفا خلال الماقط (١)
بعثوا عليه بناتهم وبنيهم ... ما بين ناتفة وآخر سامط

(١) المؤذن : الديك . هفا : سقط . الماقط : حومة الوغى

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعط (١)
نهشوه فانتزعت لهم أسنانهم وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

ولقد قرأنا لابن الرومى بعض صوره (الكاريكاتورية) البارعة . رأيناه تصويره للأحدب ، فلنشهد هذه الصورة لجحظة المغنى :

رأيت جحظة يخشى الناس كلهمو إذا هم عاينوه الفالج الذكرا
تخاله أبداً من قبح منظره مجاذباً وتراً أو بالعاً حجرا
كأنه ضفدع فى لجة هرم إذا شدا نغما أو كرر النظرا
لو كان لله فى تخليدنا قدر مع قربه ما أردنا ذلك القدرا

ويقول فى صلعة أبى حفص :

يا صلعة لأبى حفص ممردة كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكناف بغداذ

ويهجو عمراً فيقول :

وجهك يا عمرو فيه طول وفى وجوه الكلاب طول
والكلب واف وفيك غدر ففيك عن قدره سفول
وقد يحامى عن المواشى وما تحامى ولا تصول
وأنت من أهل بيت سوء قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات لكن أقفاءهم طبول
مستفعلن فاعلن فعولن مستفعلن فاعلن فعولن
بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

ويقول :

لو أن قصرك يا ابن يوسف كله إبر يضيق بها فضاء المنزل

---

(١) خاقان لقب ملك الترك . ناعط : قبيلة من همدان وأصله اسم جبل .

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

أغراضه أخرى:

أما الأغراض الأخرى فلا سبيل إلى حصرها ، ولا يتسع المجال لتفصيلها والافاضة فيها . فحسبنا أن نشير إلى بعضها مكتفين بما عرضناه وسنعرضه من النماذج ، على أن معظمها قد سبقت الإشارة إليه ، وتعرضنا له فى كثير من المناسبات .

فهناك الزهد وهو ظاهرة مضادة للمجون والزندقة والاباحية ، ومن القواعد المقررة أن الغلو فى ناحية يقتضى ظهور ناحية أخرى مضادة لها ، وهذا ماحدث فى العصر العباسى . فقد ظهرت طائفة من الشعراء تحمل على الفساد ، وتشهر بالمدنية ، وتدعو إلى الاعتدال والزهد ، وتحذر من الدنيا وغرورها ، وتأمر بكريم الأخلاق وحميد السير ، وتضرب الأمثال والحكم عظة للسامعين ، وتذكرة للغافلين وقد مر بنا ذكر أبى العتاهية وصالح بن عبد القدوس وأمثلة طيبة من الزهد والحكمة . كما ذكرنا من قبل أن أبان بن عبد الحميد نظم كتاب كليلة ودمنة للسمر والموعظة ... وأخذ الزهد يشق طريقه إلى قلوب الشعراء ، حتى رأيناه يقتحم قلب شاعر خليع كأبى نواس فينطقه بقوله :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقا
ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالا ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد إذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

وهناك الوصف وهو فن ظهرت فيه براعة العباسيين وقدرتهم على التصوير

وقد ساعدهم على الاجادة فيه والسمو بخياله ومعانيه ، ما رددناه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أكمام الشاعرية ، وينمى الأحساس بالجمال ، ويقوى ملكة التصوير . ولقد نضحت خواطرهم بكثير من الأوصاف التى تناولت كل ما وقعت عليه عيونهم ، وسنضيف إلى ما ذكرناه من أمثلة تجلت فيها قدرتهم على التصوير ، أمثلة أخرى لهذا الغرض فى النماذج.

وهناك غرض آخر لم نشأ أن نخوض فيه لأنه لم يظهر بصورة جلية واضحة إلا بعد عصر نفوذ الخلفاء ، ذلك هو نظم العلوم والفنون .

وهناك الرثاء والفخر وغيرهما من الأغراض العامة التى تناولها الشعراء فى جميع العصور ، وقد طبعها العباسيون بطابعهم الخاص .

الشعوبية فى الشعر العربى

الشعوبية نزعة تغلغلت فى صدور جماعة من الموالى الذين دخلوا فى الاسلام ، وخضعوا لسلطان العرب . وهى اعتقادهم أنهم أزكى من العرب نسباً ، وأطيب منهم عنصراً ، وأعرق منهم حضارة ومدنية .

وقد أطلق لفظ (الشعوبيين) أولا على من يقولون بتساوى الشعوب ، يقول ابن عبد ربه : الشعوبية هم أهل التسوية ، وفى صحاح الجوهرى : الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم . . ثم أطلق هذا اللفظ بعد ذلك على من يفضلون العجم على العرب ، يقول صاحب القاموس : الشعوبى محتقر أمر العرب .

والشعوبية مأخوذة من الشعوب جمع شعب وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة . قال ابن الكلبى : الشعب أكبر من القبيلة . وعلى هذا فالعرب شعب والفرس شعب وهكذا .. وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » : إن المراد

بالشعوب العجم وبالقبائل العرب . وهذا من غير شك تفسير شعوبى أريد به إثبات أفضلية العجم لتقدمهم فى الذكر .

— ١ —

جاء الاسلام فسطع بنوره على الأفئدة ، وأشرق بهدايته على النفوس ، وعمد إلى قلوب العرب فطهرها من ضغائنها ، واستل أحقادها وسخائمها من مكامنها ، وجعلهم إخوة تتكافأ دماؤهم ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وأذهب عنهم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، فكلهم لآدم وآدم من تراب .

وقد أصاخ العرب لهذه الدعوة الكريمة ، واستجابوا لهذه الآداب الرفيعة ، وهجمت فى نفوسهم عصبية الدم ، واستنامت فى صدورهم حمية الجاهلية ، وشرور القبلية ، وانطلقوا جميعا فى مواكب الغزو إخوة متساندين ، يتواثبون على ملك كسرى ، وبلاد فارس ، بما فيها من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

— ٢ —

على أن هذه السنة الحالمة لم تنم عليها عين الدهر إلا قليلا ، ثم عاد الخلاف أعنف وأقسى مما كان ، على الملك والسلطان ، وافترق العرب فى الأمرة والولاية إلى شيع وأحزاب ، وخصوم وأعداء ، كل له هوى ، وكل له مأرب .. وكان هذا مبدأ التنفيس عن المغلوبين ، فقد كان لكل حزب عصبية وأنصار من الموالى وأبناء الأعاجم ، وكانوا يناصرون الأحزاب السياسية ، وينافحون عنها بشعرهم ، وقد وجدوا أن فى ذلك فرصة ينفذون منها إلى أغراضهم ، ويظهرون من فضائل شعوبهم ، وقد يعلنون ما كمن من حبهم لبلادهم ، وحقدهم على غالبيهم .. كان أبو العباس الأعمى ينافح عن بنى مروان ، ويستبيح فى سبيل

ذلك هجو أشراف قريش خاصة والعرب عامة ، وأصله مولى من أذربيجان ، وكانت صلات بنى أمية ترسل إليه فى مكة . وحج عبد الملك بن مروان مرة فدخل عليه هذا الشاعر فأنشده شعراً هجا به ابن الزبير ، فحلف عبد الملك على من فى المجلس من قرابته ومن قريش ليكسونه كل واحد منهم ، فألقيت عليه الحلل والثياب ، حتى كادت تخفيه . . وكان اسماعيل بن يسار وإخوته — إبراهيم ومحمد — ذوى نزعة فارسية يتعصبون للعجم ، وينقمون على العرب ، وكلهم شعراء ، قال أبو الفرج : وكان اسماعيل شعوبيا شديد التعصب للعجم ، وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم . . .

كان اسماعيل نصيرا لآل الزبير ، غاليا فى حبهم ، فلما دالت دولتهم انضم إلى بنى مروان فقبلوه ، وكان منافق الهوى ، خبيث الرأى ، لا يعرف صدقا فى حب ، ولا وفاء فى صحبة ، ولا نبلا فى عاطفة . حدث أبو الفرج أن إسماعيل استأذن على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يوما فحجبه ساعة ، ثم أذن له فدخل يبكى ، فقال الغمر : أتبكى يا أبا فائد ؟ قال : وكيف لا أبكى وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أحجب عنك ؟ فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكى ، فما سكت حتى وصله ، وخرج من عنده فلحقه رجل ، وقال له : أخبرنى ويلك يا إسماعيل أى مروانية كانت لك ولأبيك ، قال : بغضنا إياهم ، امرأته طالق إن لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ، وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له . قل لا إله إلا الله ، فقال لعن الله مروان ، تقربا بذلك إلى الله ، وإبدالا له من التوحيد ، وإقامة له مقامه . وهذا المروانى الذى كان يبكى بين يدى الغمر ، ويدعى المروانية عن أمه وأبيه ، هو الذى يفاخر العرب ويكاثرهم ويذكر معايبهم ، ويكشف مثالبهم ، ويقول من قصيدة له :

إنما سمى الفوارس بالفر ... س مضاهاة رفعة الأنساب

كما يقول فى قصيدة أخرى :

لا من مثل كسرى وسابور الجنود معا والمرمزان لفخر أو لتعظيم

على أن هذا الشعور الذى كان يعتلج فى نفوس الموالى فلا يجد لاشاعته إلا آفاقا ضيقة ، كان مجاوبة ومدافعة لشعور أقوى منه شدة ، وأعنف حدة ، فقد كان العرب ، بحكم مافيهم من طبيعة الغلبة وروح السيادة ، يأنفون من الموالى ، ويحقرون مالم يكن عربيا ، ويرون أن الإشارة إلى الموالى لا تعد عيبا ! يروى أن جريراً نزل بقوم من بنى العنبر فلم يضيفوه حتى اشترى منهم القرى ، فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعتكم رفد القرى مفسد للدين والحسب

قالوا نبيعكم بيعاً فقلت لهم بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

قال المبرد : إن جلة الموالى أنفت من هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً .. وكان الحجاج — ولعل ذلك لدوافع سياسية — يسم بالمشراط أيدى النبط ؛ وهم قوم من الأعاجم كانوا ينزلون بين العراقين ، وقد قال شاعر عربى فى هجاء مولى :

لو كان حياً له الحجاج ما سلمت صحيحة يده من وسم حجـــاج

ولما نزل الحجاج واسطا نفى النبط منه ، وكتب إلى عامله بالبصرة يقول: إذا أتاك كتابى فانف من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا ، فكتب إليه : قد نفيت النبط إلا من قرأ منهم القرآن وتفقه فى الدين ، فكتب إليه الحجاج ثانية : إذا قرأت كتابى فادع من قبلك من الأطباء ونم بين يديهم ليقفوا عروقك ، فإن وجدوا فيك عرقاً نبطياً فاقطعه

ويصف محمد بن بشير أخلاق الموالى بقوله :

ويسعى لك المولى ذليلا مدفعاً ويخذلك المولى إذا اشتد كاهله

فأمسك عليك العبد أول وهلة ولا تنفلت من راحتيك حبائله

ويقول :

إذا افتقر المولى سعى لك جاهدا لترضى وإن نال الغنى عنك أدبرا

ويقول نصر بن سيار فى التحذير من خطر الموالى :

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتهم فاينفضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حرباً يحرق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم عزب
وتتركون عدواً قد أظلكمو مما تأشب لا دين ولا حسب
قدما يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمو فإن دينهم أن تقتل العرب

على أنا نستطيع أن نقول إن كراهة العرب لم تأخذ شكلا مستملنا تمام العلن فى أيام الأمويين ، ولم تستطع أن تبرز من مخابئها كثيرا لعروبة الدولة ، وبالغ اعتزازها بأصلها ، وفرط تنبه الخلفاء والأمراء والرعية والشعراء .

إنما كانت الشعوبية نفثات ومخالسات، تنبعث فى ألوان براقة من الدفاع عن الأحزاب السياسية ، والمحاماة دونها ، فكانت كالسم فى العسل : جميل المظهر قاتل المخبر

— ٣ —

ثم قامت الدولة العباسية على أكتاف الموالى كما قدمنا ، فقربوهم واعتزوا بهم . ومن هنا ظهرت بوضوح نزعتهم ، وتجلت شعوبيتهم .. حتى كان الشاعر الشعوبى فى هذا العهد يقول فلا يبالى قوة ، ولا يخشى فى الغالب سطوة ، ولا يتخوف إيقاع حاكم أو انتقام أمير ، فالخلفاء مدينون فى دولتهم للموالى ، ويمتون بأرحام إلى الأعاجم ، والقواد والوزراء وأرباب السياسة موال يتعصبون

للجنس ، ويتحمسون لأخوتهم فى الوطنية ، ويحاولون جميعاً أن يصبغوا الدولة بصبغة فارسية

ولقد رأينا بشاراً يفخر أمام المهدى بأعجميته ، فيقول كما حدث عن نفسه : « دخلت على الخليفة المهدى ، فقال لى : فيمن تعتد يابشار ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين أما اللسان فعربى وأما الأصل فأعجمى كما قلت فى شعرى :

ونبئت قوماً بهم جنة ... يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهدا ... ليعرفنى أنا أنف الكرام
نمت فى الكرام بنى عامر ... فروعى وأصلى قريش العجم

ويفخر جهاراً من ولاء العرب فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال ويعضهم ... مولى العريب فخذ بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك الأجل الأكبر

ويقول فى رجل ادعى النسبة إلى العرب :

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته ... فإنه عربى من قوارير

ويقول فيه :

إن عمرا فاعرفوه ... عربى من زجاج
مظلم النسبة لا يعرف إلا بالسراج

وذكر أبو الفرج أن إعرابياً دخل على مجزأة السدوسى وعنده بشار ، فقال الاعرابى : من هذا الرجل ؟ فقال مجزأة : رجل شاعر ، فقال ، أمولى أم عربى ؟ فقال : بل مولى : فقال : ما للموالى والشعراء ؟ فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال : أتأذن لى يا أبا ثور ؟ فقال : قل ما شئت يا أبا معاذ ، فقال :

خليلى لا أنام على اقتسار ... ولا آبى على مولى وجار

سأخبر فاخر الأعراب عنى ... وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ... وبادمت على الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع ... بنى الأحرار حسبك من خسار
مقامك بيننا دنس علينا ... فليتك غائب فى حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب ... على مثلى من الحدث الكبار

وكان أبو اسحاق المتوكلى من ندماء المتوكل حتى نسب إليه ، لشدة لصوقه به ، ولم يكن فى العراق فى زمانه من هو أبلغ منه ، وله قصيدة يتشفى فيها من بنى هاشم ويعيرهم ويتوعدهم ويفخر بالعجم وانتمائه إليهم ، ويقول :

أنا ابن الأكارم من نسل جم (١) ... وحائز إرث ملوك العجم
ومحيى الذى باد من عزهم ... وعفى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة ... فمن نام عن حقهم لم أنم
فقل لبنى هاشم أجمعين ... هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرما ... ح طعنا وضرباً بسيف خذم (٢)
وأولاكم الملك آباؤنا ... فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز ... لأكل الضباب ورعى الغنم
فإنى سأعلو سرير الملوك ... بحد الحسام وحرف القلم

ولعل هذه القصيدة هى التى أغضبت عليه المعتمد فقتله... وهذا أبو نواس يقول:

عاج الشقى على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد ... لا در درك قل لى : من بنو أسد؟
ومن تميم ومن قيس ولفهما ؟ ... ليس الأعاريب عند الله من أحد

---

(١) يريد به جمشيد ملك الفرس
(٢) أى قاطع

ويقول :

فاسقنيها وغن صو ت لك الخير ـ أعجما
ليس فى نعت دمنة لا ولا زجر أشأما

ويقول فى وصف الخمر ويقصد بذلك أن العرب لم تعرف إلا خشونة الحياة وشظف العيش ، وقسوة المكابدة لأسبابه :

تراث أنوشروان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر
قصرت بها ليلى وليل ابن حرة له حسب زاك وليس له وفر

*
* *

هذه صورة من آثار الشعوبية فى الشعر ، وهذه نفثة من نفثات شياطينهم ، وقصائد شعرائهم . . فأين شعراء العربية من هذه الحملة الشعرية المهاجمة المناضلة ؟ هل اعتصموا بالصمت ، وتجملوا بالسكوت ، ووقفوا معقولى الألسنة ، أم قارضوهم هجاء بهجاء وإقذاعا بإقذاع ؟

الواقع أن الصورة الشعرية ، والمقاومة الأدبية لهذه الدعوة ، وتلك الصيحة فى هذا العصر ، تبدو من الضآلة والقلة ، بحيث لا تكفى لمقاومة الشعوبيين . وإنما هى صورة خافتة ، لرغبة شعراء العرب فى تملق الموالى وهم ذوو سلطان حتى كان لهم من يبالغ فى مدحهم والتقرب إليهم . . وقد يصح أن نقارن موقف الشعر العربى فى العصر الأموى بموقفه فى العباسى ، بأنه كان فى الأول مهاجماً فى كثير من الأحيان ، تبدو فيه الأنفة ، ويسرى فى أعطافه التكبر والاستعلاء ، أما فى الثانى فقد كان مدافعاً ، وإن شئت قلت : قد كان أضعف قوة من المدافع .

وهذه صيحة من تلك الصيحات الخافتة ، يرسلها أبو خالد المهلبى فى رثاء المتوكل :

لما اعتقدتم أناساً لاحفاظ لهم ... ضمنتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم الذادة المنسوبة الحشد
قوم هم الأصل والأنساب تجمعكم ... والدين والمجد والأرحام والبلد
إن العبيد إذا أذللتهم صلحوا ... على الهوان وإن أكرمتهم فسدوا
إذا قريش أرادوا شد ملكهم ... بغير قحطان لم يبرح به أود

هذه صوره للشعر العربي فى مدافعة الشعوبيين ، وهى أقرب إلى أن تكون صرخة ألم واستنجاد ، من أن تكون زأرة لرد الظلم ودفع العدوان (١)

---

(١) هذا البحث مقتبس من محاضرة فى الشعوبية الاستاذ عبد الحميد السلوت

obeikandl.com

محاسن المولدين ومساوئهم

— ١ —

كان لفظ (المولد) يطلق أول الأمر على كل من لم يسلم نسبه العربي من شائبة العجمة ، فينشأ غير خالص العربية ، لاتصال نسبه بالأعاجم من جهة أمه أو أبيه . ثم أصبح هذا اللفظ يطلق على الشعراء الذين يعيشون فى العصر الذى كثر فيه مختلطو الأنساب ، ولو كانوا عربا خلصاً . فالشعراء العباسيون إذن مولدون ، وهم كذلك محدثون .

ولقد كان نقاد الأدب ورواته ينظرون إلى شعر المحدثين أو المولدين نظرة ريبة وتحفظ ، بسبب مايحدثه اختلاط الأنساب ، واتصال العرب بالعجم ، من أثر فى سلامة العروبة وأصالة الملكة . حتى إن بعضهم كان يتردد ويتشدد فى اعتبار المولد شاعراً ، فنرى أبا عمرو بن العلاء يقول عن جرير أو الفرزدق : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا برواية شعره . وربما كان الأصمعى أقرب إلى الإحسان وأدنى إلى الإنصاف ، فقد كان يعلن استحسانه لروائع هؤلاء الشعراء ، كالذى ذكروا من استحسانه لقصيدة أبى نواس « ودار ندامي عطلوها ... »

إلا أن كثيراً منهم كان يضله التعصب ويعميه عن الحق ، وقد يسمع شعراً فيطرب له وينشط لتسجيله ويسأل عن قائله ، فإذا عرف أنه محدث مولد ، أشاح عنه ونقض ماقال ، وكذب شعوره . كالذى يحدث فى زماننا

قالوا : إن ابن الأعرابى سمع أرجوزة أبى تمام التى مطلعها :

وعاذل عذلته فى عذله ... فظن أنى جاهل من جهله

لبست ريعانى فدرنى أبله ... ماغبن المغبون مثل عقله

على أنها لأحد الشعراء القدامى ، فطرب لها أيما طرب ، وقال : هذا هو الديباج الخسروانى ، ثم أمر بكتابتها ، فلما كتبت قيل له : إنها لأبى تمام ، فقال : من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة ، ثم ألقى الورقة ، وقال : خرق ياغلام خرق .

على أن هناك فريقاً من المعتدلين كانوا يعرفون لكل ذى حق حقه ، فيقدمون الشعر القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة والاستشهاد به ، ويرجحون شعر المحدثين من جهة عذوبة الألفاظ وجمال المعانى وارتباطها ، وقد مر بنا ماقاله بعضهم من أن المولدين يستشهد بهم فى المعانى ، كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ . ويمثل ابن رشيق القديم والمحدث برجلين ابتدأ أحدهما بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم جاء الآخر فنقشه وزينه ، فالقدرة ظاهرة على عمل الأول وإن خشن ، والكلفة ظاهرة على عمل الثانى وإن حسن .

والحق أن للمولدين محاسن أشرقت بها صفحة الأدب والشعر ، ومساوىء جاءت كالكلف فى هذه الصفحة المشرقة .

— ٣ —

أما محاسنهم فما نظن أننا فى حاجة إلى أن نعيد شرحها وتفصيلها بعد ماستجليناه من روائعها ، وجلوناه من آياتها ، فيما قدمناه من دراسة تحليلية واسعة ، واستعراض شامل طويل . رأيناها فيه عبيراً يتضوع شذاه ، فينعش الأرواح ، ويوقظ المشاعر ، ويستهوى الأفئدة والنفوس .

فهذه ألفاظهم الرشيقة الأنيقة التى تسيل رقة وعذوبة ، وأساليبهم المشرقة الديباجة ، الواضحة التراكيب الجميلة الترتيب .

وهذا هو البديع الذى يحلون به جيد الألفاظ ونحور الأساليب ، فيزيدها جمالا ، ويكسوها فتنة وبهاء ، لطف اجتلابه ، واختيار موضعه ، وحسن موقعه

وقد رأينا فى دراسة الألفاظ والأساليب كيف هذبوا الألفاظ ، ونسقوا الأساليب ، ورتبوا التراكيب ، وجودوا المطالع ، وتأنقوا فى استعمال أصباغ البديع .

ودرسنا معانيهم وأخيلتهم فوجدنا التشبيه الرائع ، والخيال البارع ، والاستعارة الجميلة ، والتصوير البديع .

جددوا معانى القدماء ، وتصرفوا فيها ، وطبعوها بطابع عصرهم حتى كادوا يستبدون بها .

وابتدعوا الكثير من المعانى الجيدة ، حتى رأيناهم يشقون أصداف الكلام عن فرائد درها ، ويفتحون أكمام البيان عن مباهج زهرها .

وتناولوها بالدقة والعمق ، والتحليل والشرح ؛ واحتجوا لها واستدلوا عليها ؛ وخلعوا عليها ماتأثروا به من حضارة وثقافة وفلسفة .

ومن محاسنهم فيها مانجلى بها من روعة الأداء وقوة التصوير ؛ ومارددوه بين ثناياها من حكم وأمثال ؛ وما أشاعوه فيها من حسن التعليل .

كما أن من محاسنهم تلك المبالغات المقبولة التى تستثير النفوس ، وتهز المشاعر ، هذا إلى ما امتازوا به من ترتيب الأفكار ؛ وتنسيق العناصر ؛ وحسن التخلص وقوة الربط بين المعانى ؛ حتى لانجد تفككا أو اضطرابا ؛ أو شرودا أو اقتضابا وحتى كان من أثر ذلك عنايتهم بمطالع القصائد وخواتيمها ، وملاءمتها للبدء والختام .

— ٣ —

أما مساوئهم فإنا نذكر بعضها فيما يلى :

١ — جرهم الغرام بالغوص على المعانى ؛ والإمعان فى دقتها إلى الغموض

المظلم ؛ الذى يكد الفكر فى فهمه ، ويعيى الذهن فى استجلائه ؛ وذلك كما يقول إسحق الموصلى:

أخاف عليها العين من طول هجرها فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر

فكيف يهجر خوفا من الهجر ؟

ويقول أبو تمام :

ولهت فأظلم كل شىء دونها وأنار منها كل شىء مظلم

فنجد القدماء يقفون أمام هذا الغموض ، والحيرة تبلبل أفكارهم ، وتشتت عقولهم فى كل واد ؛ وتدفعهم هذه الحيرة إلى أن يحاولوا الانتصار على هذا الغموض بتبديد غيومه ، وإجلاء ظلامه . وقد ألف المرزوقى بحثاً سماه (المشكل) عرض فيه للمشكل من أبيات أبى تمام .

ويشرح المرزوقى هذا البيت على هذا النحو : لما جزعت لفراقها اشتد جزعها على ، فأظلم كل شىء فى عينى سواها ومن دونها ، وبان لى من مكتوم أمرها ما كان مظلماً على . . . أو ارتاعت للفراق فألفت قناعها فأظلم كل شىء دونها لسواد شعرها ، وأنار كل شىء مظلم من بياض وجهها .

ويقول التبريزى [1] . إن الأشياء أظلمت دونها أى غيرها ، وهى من حسنها تضىء الأشياء المظلمة .

ويقول أبو تمام أيضاً :

طال إنكارى البياض ولو عم رت شيئاً أنكرت لون السواد

فيحار النقاد فى فهم مايريد ، هل يريد أن يقول: كنت أنكر الشعرة البيضاء فصرت أنكر السواد ؟ أو يريد : إن عمرت شيئا أسود من لونى وجلدى

---

(١) التبريزى على أبى تمام ٢ ص١٠٣

ما كان مبيضاً فنكرته ؟ أو : إن عمرت شيئاً أنست بالبياض وسكنت إليه حتى أكون منكراً للسواد كما أنكر البياض الآن ؟ الله أعلم بمراده .

ومهما يكن فى هذه المعانى وأمثالها من دقة وروعة ، فإن هذا الاستغلاق يبعد بالشعر عن مجال العاطفة التى هو لغتها ، إلى مجال التشريح العلمى الذى هو مجال الفكر والعقل .

٢ ـ وإلى جانب استعاراتهم الجميلة وتشبيهاتهم الرائعة ، كانت لهم هنوات أتوا فيها بما يمجه الذوق ، وتجتويه المشاعر ، ويرجع ذلك إلى الإمعان فى الاستعارة والتشبيه ، والإلحاح عليهما فى كل حال .

يقول أبو نواس :

مالرجل المال أضحت تشتكى منك الكلالا

ويأبى إلا أن يستعير المال من أرجل الآدميين ، حتى يصور كلالها ، ولكنها رجل تستحق القطع . إلا أن أبا نواس لا يوافق على أن هذا سخف ، وعلى أنها تستحق البتر ، ويروح فيستعير للمال إنساناً كاملا يصيح حتى يبح صوته :

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

ويقول بشار :

وجذت رقاب الوصل أسياف هجرها وقدت لرجل البين نعلين من خدى

فتجذ سيوف الهجر رقاب الوصل ، وتقد لرجل البين نعلين من خده ، أى خد بشار ، قبحه الله .

ويقول أبو تمام :

حتى إذا اسود الزمان توضحوا فيه فغودر وهو فيهم أبلق

الزمان أبلق . إغراب فى التصوير دعا إلى هذه السماجة ، ولكن لا بأس فهو أهون من قوله :

كأنى حين جردت الرجاء له غضاً صببت به ماء على الزمن

فالآمدى يستقبح جعله الزمان كأنه صب عليه ماء، كما يستقبح جعله أبلق (١).

وأبو تمام مولع بهذا الماء يملأ به أوعية الاستعارة ، وما يزال يقول :

لا تسقنى ماء الملام فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى

حتى يرسل إليه ظريف خبيث قارورة ، ويقول له : ابعث لنا شيئاً من ماء الملام . ومهما يكن من شىء فهى صورة غريبة بالرغم من قبحها .

٣ ـ وقد كان للمبالغة فى شعرهم أثرها فى تفخيم المعنى وسمو الخيال وإبداع التصوير ؛ وكانت مقبولة سائغة لوقوعها فى حدود الامكان أو قريباً منه . ولكن إفراطهم فيها ، وإلحاحهم عليها ، واغترارهم بمحاسنها ؛ أوقعهم فى المحال وأدناهم من الشرك أو أركسهم فيه . فهذا أبو نواس يقول :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

حتى إن العتابى يقول له : أما استحييت من الله بقولك هذا البيت ، فيقول أبو نواس : وأنت أما استحييت منه بقولك :

ما زلت فى غمرات الموت مطرحا يضيق عنى وسيع الرأى من حيلى

فلم تزل دائما تسعى بلطفك لى حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

قال العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت لكل ناصح جوابا . والواقع أن هذا من ذاك ، وكلاهما حمق وسفه .

وكذلك يفتن المال ، ويغرى العطاء ، وإلا فما بال أبى نواس يعود فيقول :

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان

حتى الذى فى الرحم (لم يك صورة) لفؤاده من خوفه خفقان

---

(١) الموازنة ١٠٧

ولقد رأينا المبالغة عند البحترى وغيره ، ولكنها مبالغة مقبولة ، اصطحبت معها أدواتها المقربة من الامكان مثل كاد ولو ونحوهما :

وما يزال شيطان المبالغة يغر الشعراء ويضلهم ، ويركض مع الزمن فى خيالهم حتى يقع فيما بعد على ابن دريد فينطقه بهذا الاثم :

ولو حمى المقدار منه مهجة لرامها أو يستبيح ماحمى
تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ماأبى

ويظل يوسوس للمتنبى بمثل قوله :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام

وقوله :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقوله :

يامن نلوذ من الزمان بظله أبدا ونطرد باسمه إبليسا

٤ — وإذا لم نفصل الفن عن الخلق والدين ، ونظرنا إلى أن المثل العليا من رسالة الفن الرفيع ، فإننا نعد من معايبهم ماشاع فى شعرهم من الغزل بالغلمان والاسترسال فى المجون ، والإغراق فى نعت الخمر ، وتحسين ذلك كله والإغراء به والدعوة إليه ، ونحو ذلك مما يأباه الخلق ، ويبغضه الدين ، وتجفوه المروءة والعفة.

٥ — وتمتد هذه المساوىء إلى مابعد عصرنا فتتسع وتتشعب ويظهر قبحها بوضوح وجلاء . فهذا الإمعان فى دقة المعنى والغوص عليه ينتهى آخر الأمر إلى هذه المعميات والألغاز الشعرية ، التى يراها الشعر أخيرا فنا من الفن وبابا من الشعر ، كما يلغز بعضهم فى القلم فيقول :

وما غلام راكع ساجد أخو نحول دمعه جارى
ملازم للخمس فى وقتها معتكف فى خدمة البارى

وهذه المحسنات البديعة ينتهى جمالها الواضح إلى الغموض، وبريقها اللامع إلى الصدأ . بسبب التكلف فيها ، والإلحاح فى تعمدها ، واستكراه أبياتها ، واستجلاب بعيدها .

ثم تنتهى هذه السهولة العذبة إلى ابتذال . ويحبس الخيال المحلق بأجنحة العواطف فى قفص من نظم العلوم العقلية وغيرها من الفنون .

نماذج من الشعر

المدح :

قال أبو نواس يمدح الخليفة محمداً الأمين :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً ... فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصى ... فلها علينا حرمة وذمام
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر ... قمر تقطع دونه الأوهام
ملك إذا علقت يداك بحبله ... لا يعتريك البؤس والإعدام
فالبهو مشتمل ببدر خلافة ... لبس الشباب بنوره الإسلام
إن الذى يرضى الإله بهديه ... ملك تردى الملك وهو غلام
ملك إذا اعتسر الأمور مضى به ... رأى يفل السيف وهو حسام
داوى به الله القلوب من العمى ... حتى أفقن وما بهن سقام
أصبحت يا بن زبيدة بنة جعفر ... أملا لعقد حباله استحكام
فسلمت للأمر الذى ترجى له ... وتقاعست عن بوماك الأيام

وقال أبو تمام يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا ... على مثلها والليل تسطو غياهبه (١)

لأمر عليهم أن تتم صدوره ... وليس عليهم أن تتم عواقبه (٢)

على كل موار الملاط تهدمت ... عريكته العلياء وانضم حالبه (٣)

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة ... رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

إليك جزعنا مغرب الملك كلما ... هبطنا ملا صلت عليك سباسبه (٤)

إلى سالب الجبار بيضة ملكه ... وآمله غاد عليه فسالبه (٥)

وقد قرب المرمى البعيد رجاؤه ... وسهلت الأرض العزاز كتائبه

سما للعلا من جانبيها كليهما ... سمو عباب الماء جاشت غواربه (٦)

فنول حتى لم يجد من ينيله ... وحارب حتى لم يجد من يحاربه

وأين بوجه الحزم عنه وإنما ... مرائى الأمور المشكلات تجاربه (٧)

أرى الناس منهاج الندى بعد ما عفت ... مهايعه المثلى ومحت لواحبه (٨)

ففى كل نجد فى البلاد وغائر ... مواهب ليست منه وهى مواهبه (٩)

---

(١) أطراف الأسنة : أسنة الرماح . عرسوا : نزلوا ليلا . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أسنة الرماح وهى كور الجمال التى تشبه الأسنة فى الصلابة والمضاء

(٢) أى هؤلاء الركب ركبوا لأمر وهو نيل العطاء من الممدوح

(٣) الملاط : عضد البعير . والموار : المتحرك . والحالب : عرق يتصل باسفل البطن وهو كنية عن الضمور .

(٤) جزعنا الأرض : قطعناها عرضاً ، ومغرب الملك ، الشام ، وكان أبو تمام بها وكان ممدوحه بخراسان ، والملا الصحراء ، وصلت عليه أثنت عليه ، والسباسب جمع سبسب — الأرض المستوية

(٥) بيضة الملك حوزته وأصله . وآمله طالب العطاء منه . يقول إنا سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله . فهو سالب ملك الجبار ومسلوب المال من الصالبين

(٦) يريد بجانبى العلا الشجاعة فى الحرب والكرم . والعباب معظم الماء وجاشت زخرت وغواربه أعلى أمواجه . ٧) اين بوجه الحزم . أى كيف يشكل عليه الحزم وتجاربه مرآة للمشكلات ومرائى جمع مرآة . ٨ . المهايع واللواحب الطرق الواضحة

(٩) لما علم الناس الكرم كانت هباتهم ليست منه وهى فى الحقيقة منه لأنه هو الذى علمهم

إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله ... فقد طالبته بالنجاح مطالبه (١)

الغزل :

وقال العباس بن الأحنف :

أزين نساء العالمين أجيبي ... دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ما أقيم حروفه ... لشدة إعوالي وطول نحيبي
أخط وأمحو ما خططت بعبرة ... تسح على القرطاس سح غروب
وأنت من الدنيا نصيبي فإن أمت ... فليتك من حور الجنان نصيبي
وإني لأستهدي الرياح سلامكم ... إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام إليكم ... فإن هي يوماً بلغت فأجيبي
أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيارب قرب دار كل حبيب
أزوار بيت الله مروا بيثرب ... لحاجة مقبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا ... على جلب للحادثات جليب
فإنا تركنا بالعراق أخا هوى ... تنشب رهنا في حبال شعوب
به سقم أعيا المداوين علمه ... سوى ظنهم من مخطىء ومصيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه ... وإن نحن نادينا فغير مجيب

وقال بشار :

قد لامني في خليلتي عمر ... واللوم في غير كنهه ضرر
قال أفق قلت لا فقال بلى ... قد شاع في الناس منكما الخبر
قلت وإذ شاع ما اعتذارك مما ... ليس لي فيه عندهم عذر

---

(١) أي من نزل عندك وألقى رحله بربعك نجح مطلبه

ماذا عليهم وما لهم خرسوا ... لو أنهم فى عيونهم نظروا
أعشق وحدى ويؤخذون به ... كالترك تغزو فتؤخذ الخرز
يا عجبا للخلاف يا عجبا ... بقى الذى لام فى الهوى الحجر
حسبى وحسب الذى كلفت به ... منى ومنه الحديث والنظر
أو قبلة فى خلال ذاك وما ... بأس إذا لم تحل لى الأزر
أو عضة فى ذراعها ولها ... فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى ... والباب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخايلها ... أو مص ريق وقد علا البهر
واسترخت الكف للمراك وقا ... لت إليه عنى والدمع ينحدر
انهض فما أنت كالذى زعموا ... أنت وربى مغازل أشر
قد غابت اليوم عنك حاضنتى ... والله لى منك فيك ينتصر
يا رب خذ لى فقد ترى ضرعى ... من فاسق جاء ما به سكر
أهوى إلى معضدى فرضضه ... ذو قوة ما يطاق مقتدر
ألصق بى لحية له خشنت ... ذات سواد كأنها الابر
حتى علانى وأسرتى غيب ... ويلى عليهم لو أنهم حضروا
أقسم بالله لا نجوت بها ... فاذهب فأنت المساور الظفر
كيف بأمى إذا رأت شفقى ... أم كيف إن شاع منك ذا الخبر
قد كنت أخشى الذى ابتليت به ... منك فماذا تقول يا عبر
قلت لها عند ذاك يا سكنى ... لا بأس إنى مجرب خبر
قولى لها بقة لها ظفر ... إن كان فى البق ماله ظفر

الوصف :

وقال البحترى يصف إيوان كسرى بالمدائن ويرثى دولة الفرس :

صنت نفسى عما يدنس نفسى ... وترفعت عن جدا كل جبس (١)
وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ... ـر التماساً منه لنعسى ونكسى
بلغ من صبابة العيش عندى ... طفقتها الأيام تطفيف بخس
حضرت رحلى الهموم فوجهـ ... ـت إلى أبيض المدائن عنسى (٢)
أتسلى عن الحظوظ وآسى ... لمحل من آل ساسان درس (٣)
ذكر تنيهم الخطوب التوالى ... ولقد تذكر الخطوب وتنسى
وهم خافضـــون فى ظل عال ... مشرف يحسر العيون ويخسى (٤)
حلل لم تكن كأطلال سـعدى ... فى قفار من البسابس ملس (٥)
نقل الدهر عهدهن عن الجد ... ة حتى غدون أنضاء لبس (٦)
فكأن الجرماز من عدم الأنـ ... ـس وإخلاله بنية رمس (٧)
لو تراه علمت أن الليالى ... جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم ... لا يشاب البيان فيهم بلبس
فإذا ما رأيت صورة أنطا ... كية ارتمت بين روم وفرس (٨)

«١» الجدا : العطاء الجبس : الجبان اللئيم
«٢» حضرت رحلى الهموم : طرأت على الأحزان والعنس : الناقة القوية
«٣» آسى : أحزن وآل ساسان : أكاسرة الروم درس : دارس
«٤» يحسر العيون : يضعفها إذا نظرت تبين ارتفاعه - يخسى : يؤلم
«٥» الحلل : جمع حلة طائفة من البيوت والبسابس . القفار ملس خالية
«٦» أنضاء جمع نضو : المهزول من الحيوان أو الثوب البالى ولبس - استعمال أى أبلاها الدهر «٧» الجرماز - بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما بجوار القصر . والرمس القبر .
«٨» أنطاكية بلد بالشام حيث وقعت معركة بين الفرس والروم وقد صورت فى الايوان

والمنايا مواثل وأنو شر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس (١)
فى اخضرار من اللباس على أصـ فر يختال فى صبيغة ورس (٢)
وعراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم وإغماض جرس
من مشيح يهوى بحامل رمح ومليح من السنان بترس (٣)
تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس (٤)
يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقـراهم يـدى بلمس

* * *

وكان الإيوان من عجب الصنـ ـعة جوب فى جنب أرعن جلس (٥)
يتظنى من الكآبة أن يبـ ـدو لعينى مصبح أو ممسى (٦)
مزعجا بالفراق عن أنس إلف عز، أو مرهقا بتطليق عرس
عكست حظه الليالى وبات المشـ ـترى فيـه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلدا وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى
لم يعبه أن بز من بسط الديـ ـباج واستل من ستور الدمقس (٧)

---

(١) مواثل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب . وأنو شر وان أحد الأكاسرة . يزجى يسوق . والدرفس العلم الكبير

(٢) الورس نبات ذو صبغة حمراء

[٣] المشيح الحذر . والمليح الذى يخاف ويحذر أيضا . والترس المجن

[٤] تصف العين : يخيل إليها

[٥] الجوب الخرق . والارعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل . الجاس الجبل العالى : فكان الايوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذى يشمل الايوان وغيره من الغرف والمقاصير مصخرق فى جانب جبل أرعن ، وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجنحة والطنف والأبيات الآتية توضح هذا التشبيه .

(٦) يتظنى : يظن . أن يبدو : وقت أن يبدو ومزعجا مفعول ثان ليتظنى ، أى أنه يظن وقت ظهوره للعين مزعجا بفراقه أليفا أو عروسا

(٧) بز سلب . والديباج الثوب سداه ولحمته حرير . والدمقس الحرير الابيض

مشمخر تعلو له شرفات رفعت فى رءوس رضوى وقدس(١)
لابسات من البياض فما تبـ ـصر منها إلا غلائل برس(٢)
ليس يدرى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس
غير أنى أراه يشهد أن لم يك بانيه فى الملوك بنكس(٣)

* * *

عمرت للسرور دهرا فصارت للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهلى غرسوا من زكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشـــدوا قواه بجباه تحت السنور حمس(٤)

وقال يصف بركة المتوكل وما فيها من السمك :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيهـا
بحسبها أنها من فضل رتبتهـــا تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسهـا فى الحسن طوراً وأطوار تباهيها
أما رأت كالىء الاسلام يكلؤها من أن تعاب وباقى المجد يبنيهـا
كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدقوا فى معانيهـــا
فلو نمر بها بلقيس عن عرض قالت هى الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفود المـــاء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها

---

(١) مشمخر : عال . ورضوى وقدس جبلان
(٢) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يلبس تحت الثوب . والبرس : بكسر الباء . قطنها القطن أو ما يشبهه . (٣) النكس : الضعيف الدنى . (٤) السنور : كل سلاح من حديد وحمس : شجعان . يشير إلى بلاء الفرس فى إقامة الدولة العباسية

كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها (١)
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يمعن فيها بأوساط مجنحة ... كالطير تنقض فى جو خوافيها
لهن صحن رحيب فى أسافلها ... إذا انحططن وهو فى أعاليها
محفوفة برياض لا تزال ترى ... ريش الطواويس تحكيه ويحكيها
ودكتين كمثل الشمريين غدت ... إحداهما بإزا الأخرى تساميها

وقال مسلم بن الوليد فى وصف البحر والسفين :

أديرى على الراح ساقية الخمر ... ولا تسأليني واسألى الكأس عن أمرى
كأنك بى قد أظهرت مضمر الحشا ... لك الكأس حتى اطلعتك على سرى
وقد كنت أقلى الراح أن يستفزنى ... فتنطق كأس عن لسانى ولا أدرى
ولكننى أعطيت مقودى الصبا ... فقاد بنات اللهو مخلوعة العذر
إذا شئت غادانى صبوح من الهوى ... وإن شئت ماسانى غبوق من الخمر
ذهبت ولم أحدد بعينى نظرة ... وأيقنت أن العين هاتكة ستترى
جعلنا علامات المودة بيننا ... مصايد لحظ ، هن أخفى من السحر
فأعرف منها الوصل فى لين طرفها ... وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر
وفى كل يوم خشية من صدودها ... أبيت على ذنب ، وأغدو على عذر
وملتطم الأمواج يرمى عبابه ... بجرجرة الآذى للعبر فالعبر

(١) الجواشن : الدروع واحدها جوشن . والحبك التكسر

إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت ... جواريه أو قامت مع الريح لا تجرى
كشفت أهاويل الدجى عن مهوله ... بجـــارية محمولة حامل بكر (١)
إذا أقبلت راعت بقنة قرهب ... وإن أدبرت راقت بقادمتى نسر (٢)
تجافى بها النوتى حتى كأنمـــا ... يسير من الإشفاق فى جبل وعر (٣)
تخالج عن وجه الحباب كما انثنت ... مخبـأة من كسر ستر إلى ستر (٤)
فخامت قليلا ثم مرت كأنهـــا ... عقاب تدلت من هواء على وكر
أناف بهاديها ومـد زمامهـــا ... شديد علاج الكف معتمل الظهر (٥)
إذا ما عصت أرخى الجرير لرأسها ... فملكها عصيانها وهى لا تدرى (٦)
كأن الصبا تحكى بهاجين واجهت ... نسيم الصبا مشى العروس إلى الخدر (٧)
يممنا بها ليل التمام لأربع ... فجاءت لست قد بقين من الشهر (٨)
فما بلغت حتى الطلاح خفيرها ... وحتى أتت لون اللحاء من القشر (٩)

---

(١) أهاويل : أهوال . ومهولة : هول النهر ، محمولة : يحملها الماء . حامل تحمل الناس بكر ! لم تركب قبل هذه المرة . يقول ! قطعت النهر المهول والليل المخوف بتلك السفينة

(٢) راعت ! أفزعت . قنة قرهب : رأس ثور وحشى مسن ، شبه به مقعد النوتى فى صدر المركب . راقت ! أعجبت . بقادمتى نسر : بمجذافين كأنهما جناحا نسر

(٣) تجافى ! تنحى عن الحشف وهو حجارة تحت الماء تقرب من أعلاه . والاشفاق ! الخوف يقول ! إن النوتى تحاشى موطن الخطر فكأنه يسير على جبل وعر

(٤) تخالج : تنحى . الحباب ! الموج ، يريد الأماكن التى تضطرب فيها الأمواج . يشبه تنقل السفينة بين المواضع خشية الأخطار بالجارية تتنقل فى نواحى البيت وأستاره مستترة

(٥) أناف بهاديها : أشرف بعنق السفينة ، المعتمل : العامل . يقول يعالج السفينة نوتى قوى

(٦) الجرير ! الحبل عصيانها ! تماديها فى الجرى أى تركها العنان لتسير كما تهوى فكأنه حملها على العصيان . . . ولكنها لا تعقل ذلك .

٧ ـ يقول حين تواجه الصبا السفينة تترفق فى مشيها فتشبه فى ذلك مشى العروس إلى خدرها وهو ما تستتر به من بيت أو نحوه

٨ ـ أى قصدت بها الممدوح لتمام الليلة الرابعة عشر من الشهر فوصلت وقد بقى من الشهر ست ليال

٩ ـ الطلاح الكلال والاعياء وفساد الحال . أى فما بلغت الغاية حتى صار الطلاح كأنه هو الحافظ له من الهلاك ، وذلك عجيب

وحف علاها الموج فى جنباتها ... بأردية من نسج طحلبه خضر[1]
رمت بالكرى أهوالها عن عيونهم ... فباتت أهاويل السرى بهم تسرى[2]

وقال على بن الجهم يصف الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه ... حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها ... وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده ... إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته ... أو مانعاً جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه ... وسيره من يد موصولة بيد
ما قابلت طلعة الريحان طلعته ... إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة ... تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لا عذب الله إلا من يعذبه ... بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومى يصف القيان العازفات على الأعواد :

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ... ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حاملات ... وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه ... وهو بادى الغنى عن الترجمان

---

(١) الطحلب : طبقة نباتية خضراء تعلو الماء ، يذكر تعلق الطحلب بجوانب السفينة من تأثير الموج . وخضر : صفة أردية .

(٢) الكرى : النوم ، يقول إن أهوال السفينة منعت ركابها النوم ، فباتوا يسيرون فى أهوال ، والأهاويل : جمع أهوال ، وهذا جمع هول

المجون :

قال أبو نواس فى الخمر والمجون :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر
وبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى ... فلا خير فى اللذات من دونها ستر
ولا خير فى فتك بغير مجانة ... ولا فى مجون ليس يتبعه كفر
بكل أخى قصف كأن جبينه ... هلال وقد حفت به الأنجم الزهر

وقال :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء
من كف ذات حر فى ذى ذى ذكر ... لها محبان لوطى وزناء
قامت بأبريقها والليل معتكر ... فلاح من وجهها فى البيت لألاء
فأرسلت من فم الأبريق صافية ... كأنما أخذها بالعين إغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء
دارت على فتية ذل الزمان لهم ... فما يصيبهم إلا بما شاءوا
لقلك أبكى ولا أبكى لمنزلة ... كانت تحل بها هند وأسماء
فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وهذه ليلة من لياليه الماجنة :

وأحور ذمى طرقت فناءه ... بفتيان صدق ما ترى منهم وغدرا
فلما قرعنا بابه هب خائفاً ... وبادر نحو الباب مستلئماً ذعرا
وقال من الطراق ليلا فناءنا ... فقلت له افتح فتية طلبوا خمرا

فأطلق عن أبوابه غير هائب ... وأطلع من أزراره قمراً بدرا
ومر أمام القوم يسحب ذيله ... يجاذب منه الردف فى مشيه الخصرا
فقلت له : ما الاسم حييت قال لى ... دعانى أبى (سابا) ولقبنى (شمرا)
فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه ... نجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
فقلت له جئناك نبتاع قهوة ... معتقة قد أنفدت قدما دهرا
فقال اربعوا عندى الذى تطلبونه ... قد احتجبت فى خدرها حقبا عشرا
فقلت فماذا مهرها قال مهرها ... إليك فسقنا نحوه خمسة صفرا
فقلت له خذها وهات نعاطها ... فقام إليها قد تعلى بنا بشرا
فشك بأشفاه له بطن مسند ... فسالت تحاكى فى تلألئها البدرا
وجاء بها والليل ملق سدوله ... مدلا بأن وافى محيطا بها خبرا
ربيبة خدر راضها الخدر أعصرا ... فكانت له قلباً وكان لها صدرا
اذا أخنتها الكأس كادت بريحها ... تخال بها عطراً ومامزجت عطرا
وما زال يسقينا ويشرب دائباً ... إلى أن تغنى حين مالت به سكرا

ومن مجونه قوله فى تفضيل الغلمان :

وعاذلة تلوم على اصطفائى ... غلاماً واضحاً مثل المهاة
فقلت لها جهلت فليس مثلى ... يخادع نفسه بالترهات
بذا أوصى كتاب الله فينا ... بتفضيل البنين على البنات

الرثاء :

وقال أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

توفيت الآمال بعد محمد ... وأصبح في شغل عن السفر السفر (١)
وما كان إلا مال من قل ماله ... وذخراً لمن أمسى، وليس له ذخر
وما كان يدري مجتدى جود كفه ... إذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا في سبيل الله من عطلت له ... فجاج سبيل الله، وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر (٢)
فتى دهره شطران فيما ينوبه: ... ففي بأسه شطر، وفي جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها: من تحت إخمصك الحشر! (٣)
غدا غدوة، والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمراً، فما دجا ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر
كأن بني نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ... ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى ... إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكن كبرا أن يقال: به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها ... وبزته نار الحرب وهو لها جمر (٤)

---

(١) السفر: المسافرون. يقول: إنه بموته انقطعت الآمال لأن الناس لم يكونوا يأملون إلا فيه، وشغلت الناس الرزية فيه عن أسفارهم وقضاء حاجاتهم.

(٢) يقول: إنه ما من قبيلة دحرت في الحرب حتى فاض الدم من عيونها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها.

(٣) يريد أنه قد ثبت للموت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها.

(٤) بزته: يقال بزه ثوبه وابتزه وسلبه.

وقد كانت البيض المآثير فى الوغى ... بواتر ، فهى الآن من بعده بتر[1]

أمن بعد طى الحادثات مجداً ... يكون لأثواب الندى أبداً نشر

إذا شجرات العرف جذت أصولها ... ففى أى فرع يوجد الورق النضر

أبن أبغض الدهر الخئون لفقده ... لعهدى به ممن يحب له الدهر

أبن غدرت فى الروع أيامه به ... فما زالت الأيام شيمتها الغدر

أبن ألبست فيه المصيبة طيء ... فما عريت منها تميم ولا بكر

كذلك ما ننفك نفقد هالكا ... يشاركنا فى فقده البدو والحضر

سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه ... وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر

وكيف احتمال للغيوث صنيعة ... بإسقائها قبراً ، وقى لحده البحر

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

ثوى فى الثرى من كان يحيي به الثرى ... ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

عليك سلام الله وقفاً فانني ... رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وقال ابن الرومى يرثى ابنه محمداً :

بكاءكما يشفى وإن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظير كما عندى[2]

ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبات القلوب على عمد

توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد

على حين شمت الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب قريباً على بعد

لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها ... وأخلفت الآمال ما كان من وعد

لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

---

(١) المآثير : جمع مأثور ، والسيف المأثور القديم المتوارث ، وبواتر : جمع باتر وهو القاطع وبتر : جمع أبتر ، أى مقطوعة

(٢) بكاؤكما : الخطاب لعينيه ، ولا يجدى ، لا ينفع ، وأودى : هلك

ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد[1]
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الرند[2]
عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وما سرنى أن بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معد[3]
وإنى وإن متعت بابنى بعده ... لذا كره ماحنت النيب فى نجد[4]
وأولادنا مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لايسد اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى
لعمرى لقد حالت بى الحال بعده ... فياليت شعرى كيف حالت به بعدى
ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخازهد
أريحانة العينين والأنف والحشا ... ألا لميت شعرى هل تغيرت عن عهدى
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به ... وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
أعينى جودا لى فقد جدت للثرى ... بأنفس مما تسألان من الرفد
كأنى ما استمتعت منك بضمة ... ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدى عليك من الأسى ... وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى
محمد ماشىء توهم سلوة ... لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للاحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ماقصد

---

(١) الجادى ، الزعفران ، وهو أصفر
(٢) الرند : النار ، وقد يسمى به الآس وهو نوع من الريحان .
(٣) معد من أعدى : بمعنى نصر وأعان
(٤) النيب : جمع ناب وهو الناقة المسنة .

النقد الأدبي

تمهيد :

لقد ركب فى الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية ، غريزة الرضى والسخط ، والاستحسان والاستهجان . فكل إنسان مهما كان حظه من العلم ، ونصيبه من المعرفة ، خاضع لهذه الغريزة ، مستسلم لتلك الطبيعة ، يحب ويكره ، ويقبل ويدبر ، ويرضى ويغضب ، ويتأثر حتما بما يمر به من صور الحياة ومظاهر الوجود ارتياحا أو انقباضاً ، ومعرفة أو إنكاراً ، وبهذه الغريزة استطاع الإنسان أن يتدرج فى مدارج الكمال ، وأن يصعد فى معارج الرقى ، لأنه حاول دائما أن يحتفظ بما يحب ، وأن يثور على ما يكره ، ويمقت فيغير وضعه ، ويزيل أثره ، وأصبحت تلازمه فطنته إلى مواطن الكمال ، وإحساسه بمواضع النقص وهذه هى التى تسمى فى عرف الناس بالنقد . فهو ليس إلا الإدراك والتمييز وقوة التمحيص ، حتى يتسنى اختيار الأكمل ، وانتقاء الأحسن . وعلى هذا قامت الحياة ، وتنقلت فى أطوارها المختلفة . تستقيم أو تعوج ، وتسير على الجادة أو تنحرف .

ولا يعنينا من جوانب النقد إلا ناحية واحدة ، هى التى تتصل بالكلام ، وتدل على مكان بلاغته ، وموضع قوته . وتعلن عن سمو وإبداعه ، أو تجلى عيوبه ، وتبرز مثالبه ، وتوضح مظاهر ضعفه وتهافته .

تعريف النقد

كان العرب يطلقون النقد والتنقاد والانتقاد على تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها ، وأنشد سيبويه فى وصف ناقة :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة ... نفى الدراهيم تنقاد الصياريف (١)

(١) تنفى ، تدفع ، الهاجرة شدة الحر ، الصياريف مفرده صيرفى : بياع النقود بغيرها من النقود ، يشبه نثرها الحصى بنثر الصيرفى الدراهم

ويقال عندهم : نقدت الدراهم وانتقدتها : أخرجت الزيف منها .

وهذا المعنى هو أنسب المعانى ، وأوثقها صلة بما نريده ، من كلمة النقد الأدبى ، فهى تميز جيد الكلام من رديئه وصحيحه من زائفه وساميه من سوقيه ولا يتأتى للمرء أن يصل إلى حكم صحيح وميزان صائب فى هذا إلا إذا كان ذا فهم ناضج ودراسة شاملة ، حتى يستطيع أن يقيس الأشياء بالأشياء ويقرن النظير بالنظير ، ويوازن بين الأساليب المتحدة فى المنزع والفكرة

النقد فى الجاهلية :

وإن الناظر فى تاريخ النقد الأدبى عند العرب يرى أن مولد هذا الفن يقترن أشد الاقتران بمولد الشعر ، فهو استحسان لما أبدعوا من هذه الصور الفنية الخلابة ، أو استهجان لما يبدو فيها أحياناً من عدم استواء الخلق أو من القصور فى العبارة أو الفساد فى المعنى أو الاضطراب فى أداء المراد .

ونحن لا نستطيع أن نعرف مولد النقد الأدبى ، كما لم نستطع أن نحدد بالضبط مولد الشعر العربى ؛ ولكن الشعر إذ وصل الينا قبل الاسلام بنحو قرن من الزمان فى هذه الصورة المستوية صحبه النقد كذلك ، فى صورة لا تخلو من دقة وألمعية ، وإن سيطر عليها إجمال فى الاشارة إلى مواضع الحسن أو القبح . وكان أكثر النقد يرجع كذلك إلى أحكام عامة ، مدها إشراق النفس وشدة إحساسها وسرعة إدراكها للقوة أو الضعف والجيد أو الردىء ، ويقينها بأنه لا يخفى شىء على ذوى الفطن وأهل البلاغة ومن يحسنون ذوق الكلام ويفرقون بين مختلف الأساليب ، فلم يكن يعنيهم أن يمعنوا فى بيان العلل وذكر الأسباب ولا أن يفيضوا ويطنبوا فى شرح المآخذ وتحليل العيوب ، إنما هى لمحات يستشعرها الناقد ويتطامن اليها السامع لأول وهلة . ولعل الذى دفعهم إلى

ذلك أولا ما فطروا عليه — وهم أهل فصاحة وأمراء بلاغة — من قوة الحس وشدة الادراك ويقظة الوعى البلاغى وسمو الفطنة لما يمر بهم من رائع القول وجزل الكلام .

ثم أغراهم بهذا اللون ما يكون بين الشعراء من تنافس على السبق وتزاحم على أبواب الأمراء وذوى الجاه واليسار . فحاولوا الصقل والتجويد ، ورغبوا فى التنقيح والتهذيب ، حتى نشأ بينهم عبيد الشعر ومن عرفوا بأنهم أصحاب الحوليات . وليس ذلك إلا التماساً للكمال وتجنباً للنقص .

وكانوا يجتمعون فى الأسواق العامة والمحافل الجامعة ، ويتناشدون أشعارهم ويتطارحون قصائدهم ، ويتبع ذلك استعراض لأنواع النقص ودلالته على مكان السمو والقوة . حتى ليروى أن النابغة الذبيانى كانت تضرب له فى عكاظ قبة من أدم فيجلس فيها ويتحاكم اليه الشعراء . وقد وفد عليه حسان بن ثابت والخنساء ، فأنشده حسان قصيدته :

لنا حاضر فعم وباد كأنه شماريخ رضوى عزة وتكرما

وأنشدت الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت مذ خلت من أهلها الدار

فقال للخنساء : لولا أن أبا بصير — يقصد الأعشى — سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق . وكان الأعشى قد سبق وأنشد قصيدته :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى ؟

وقال لحسان إنك لشاعر ، فغضب حسان من ذلك أشد الغضب وقال والله إنى لأشعر منك ومنها فقال له النابغة إنك يابنى لاتحسن أن تقول

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويروى أنه نقده فى بيتيه :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محترق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له : أضعفت فخرك ، وأقللت جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك

فنحن نرى أن الرغبة فى السبق والطماح إلى علو المكانة وسمو المنزلة ،قد دفع إلى اصطياد المعايب ، وتلقف المغامز، كما أغرى بالدلالة على مكان الحسن، وسبب التفوق فى بيت النابغة .

وهناك عامل آخر مكن للنقد وأرسى أساسه وأقام دعائمه ، ذلك هو عصبية كل قبيلة لشاعرها وفخرها بما صدر عنه من قول وما أثر له من شعر والتماسها لمعايب غيره من الشعراء حتى يخلص لهم مجال العظمة ويتوفر لديهم السبق والغلبة: هذه بعض العوامل التى هيأت للنقد أن يوجد ومنحته البقاء ومكنت له فى الحياة.

وإن من يستعرض أمثلته ويستحضر وقائعه من لدن الجاهلية يدرك أنه كان يقوم دائما على البصيرة النيرة والذكاء النافذ والألمعية السريعة الطبعة

سمع طرفة وهو صبى منشدا ينشد قول المتلمس :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم (١)

فقال على الفور: استنوق الجمل. لأن الشاعر وصف البعير بالصيعرية وهى من سمات الناقة لا البعير

ويروى أن امرأ القيس (٢) وعلقمة بن عبدة تحاكما إلى أم جندب الطائية زوج امرىء القيس فى أيهما أشعر فقالت لامرىء القيس : علقمة أشعر منك لأنك قلت فى وصف فرسك :

---

(١) الصيعرية : سمة تكون فى عنق البعير لا الناقة . وناج جمل سريع ويغلب هذا فى وصف الناقة فيقال ناجية . ومكدم: صلب

(٢) الموشح ص ٣٠

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب[1]

فضربت فرسك بسوطك وحركته بساقك وزجرته بصوتك ، وقال علقمة في وصف فرسه:

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب[2]

فأدرك فرسه الصيد ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب لم يضربه بسوط ولم يتعبه . . ويروى أن النابغة الذبياني كان[3] يقوي في شعره فقدم المدينة وأنشد أهلها قصيدته :

أمن آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح ان رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وفيها :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

فعيب عليه هذا الاقواء وقيل له : إنك تكفي الشعر فلم يأبه له فدسوا إليه قينة تغنيه وتبين الياء في « مغتدى ومزودى » والضمة في « الأسود ، ويعقد » ففطن لذلك فغيره وقال : « وبذاك تنعاب الغراب الأسود ، عنم على أغصانه لم يعقد » ،ولم يعد بعد ذلك يقوى في شعره وقال: «دخلت يثرب وفي شعري شيء وخرجت وأنا أشعر الناس »

وأنشد الأعشى قيس بن معد يكرب[4] أحد أشراف اليمن مديحاً له فلما وصل إلى قوله :

---

(١) الأخرج : ذكر النعام والخرج بياض في سواد. ومهذب أي مسرع في عدوه،ومعنى للسوط الهوب،أي يلهب جريه حين يضرب به . وللساق درة أي إذا غمز در بالجرى

(٢) ثنى عنان فرسه: جذبه نحوه . والرائح : السحاب ، المتحلب المتساقط المتتابع

(٣) ص ٣٩ الموشح (٤) ص ٥٦ الموشح

ونبئت قيساً ولم آته وقد زعموا ساد أهل اليمن

فعابه عليه ورده ولم ينفعه لديه إصلاحه له بقوله :

ونبئت قيساً ولم آته على نأيه ساد أهل اليمن

ومن هذا نفهم أن النقد إبان العصر الجاهلى كان قائما على الذوق والحس والادراك العام وانفعال النفس وتأثرها لأول وهلة ، وأنه لم يكن يقوم على طول التفكير وعمق البحث وطول تردد النظر . فتلك خلال الباحث الدارس الذى يستجمع الشوارد ويستحضر النظائر ويطيل الموازنة بين هذا وذاك ويحتشد للتحليل والاستقصاء .

وليس نقدهم فى مظهره ومخبره إلا تمشياً مع الفطرة ، وانقياداً للسليقة التى تعرف وتنكر وتستجيد وتستهجن ، وفقا لما تتذوقه من أساليب وتألف من صور . على أن النقد بعد أن وضعت له القواعد ونصبت الموازين لم يستطع أن ينقض شيئا مما ساقته الفطر ونبه عليه انفعال النفس وتأثرها ، لأنه عمل الطبيعة المستنيرة التى لم يفسدها تصنع ولم يداخلها كذب فى الحس والشعور .

النقد فى صدر الاسلام :

جاء الاسلام بدعوة الحق والعدل والاخاء والمساواة والوحدانية ، وقام الرسول يهدى إلى الله قوما أولى بأس شديد وعصبية ، فكان الشعر من أسلحته التى تحميه وتنصره ، كما كان كذلك من عدة خصومه ووسائل أعدائه . فهو إذ ذاك ذو رسالة إيجابية فى تلك الحياة الجديدة التى أظلتهم بظلالها وأقبلت عليهم بجلالها وجمالها .

استمع إليه وقد قال : إن من الشعر لحكمة .. وأنشده كعب بن زهير فى قصيدته : بانت سعاد :

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إنى عنك مشغول[1]
فقلت خلوا سبيلي لا أبالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

فعفا عنه بعد أن كان أهدر دمه وأثابه وأفضل عليه

وأنشده النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وانا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال إلى الجنة بك يا رسول الله ، فقال: نعم إن شاء الله ، فلما أنشده :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له : لا فض الله فاك

وأنشده قرة بن هبيرة قصيدته التى يقول فيها :

فما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد

فحباه وكساه بردين وحمله على فرس .

وبمقدار محبة العرب إذ ذاك للشعر وعرفانهم لقدره وفهمهم لرسالته كانوا ينقدونه ويدلون على موضع عيبه أو مظهر قوته . وكان نقدهم يتصل بالموضوع أو المعنى أو المبنى . ولقد روى عن رسول الله حين ذكر امرؤ القيس أنه قال : « كأنى أنظر إلى صفرته وبياض إبطيه وحموشة ساقيه فى يده لواء الشعر يتدهدى به فى النار »[2] وقال عمر ذات مرة لابن عباس : ألا تنشدنى لشاعر الشعراء فقال يا أمير المؤمنين ومن شاعر الشعراء ؟ قال زهير لأنه

---

(١) لا ألهينك لا أشغلنك عما أنت فيه
(٢) الحموشة : الدقة . يتدهدى : يتدحرج

لا يعاظل [١] بين الكلامين ولا يتتبع وحشي الكلام ولا يمدح أحداً بغير ما فيه . فهذا نقد يرجع إلى بناء الشعر وموضوعه

ويروى أن ابن عباس كان يقول أشعر الناس زهير لقوله يمدح هرم بن سنان:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا ... مرزؤون بها ليل إذا جهدوا [٢]
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله عنهم ما به حسدوا

على أن النقد كان قائما عندهم على الانفعال النفسي والتأثر الوقتي بما يقال . فقد يقع القول من نفوسهم موقع الرضى والقبول فيهشون له ويقدمونه على كل ما سمعوا ، حتى إذا طرق سمعهم كلام آخر نسوا ما قدموا من حكم أو أسلفوا من تقدير . يروى أن عمر خرج وعنده بابه وفد غطفان فقال أي شعرائكم الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني وشاية ... لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب [٣]

قالوا: النابغة ، قال: من القائل

خطاطيف حجن في حبال متينة ... تمد بها أيدا إليك نوازع
فانك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع [٤]

---

(١) المعاظلة التعقيد أي لا يعقده ولا يوالي بعضه فوق بعض

(٢) مرزؤون أي كرام . والبهاليل جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير . وإذا جهدوا أي أصابهم الجهد

(٣) الشعث التفرق والفساد . ويقال لم الله شعثك أي جمع ما تفرق من أمرك

(٤) الخطاطيف جمع خطاف . وحجن جمع أحجن وحجناء أي معوجة . ونوازع جواذب . والمنتأى : المكان البعيد

قالوا : النابغة قال : فمن القائل :

إلى ابن محرق أعملت نفسى ... وراحلتى وقد هدأت عيون
فألفيت الأمانة لم يخنها ... كذلك كان نوح لا يخون
أتيتك عارياً خلقاً ثيابى ... على خوف تظن بى الظنون

قالوا : النابغة ، قال : فمن القائل :

إلا سليمان إذ قال المليك له ... قم فى البرية واحددها عن الفند(١)

قالوا : النابغة . قال : هو أشعر شعرائكم

فعمر جعل زهيراً أشعر الشعراء وجعل النابغة أشعر غطفان لما تملكه من إعجاب بالمعنى وروعة فى الأداء ودقة فى التصوير ، وصدق فى الوصف

والدارس لأطوار النقد يرى أنه قد استعجدت له فى هذا العصر ناحية لم يكن يلتفت إليها الجاهليون تلك هى ناحية الموضوع ، فلقد أصبح الناس يقدمون أو يؤخرون على مقدار جلال الموضوع أو ضعته وجده أو هزله وصدقه أو كذبه ؛ كما يشير إلى ذلك قول الرسول فى امرىء القيس وقول عمر فى زهير ، وتصرف عمر مع الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر بقوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

ومع النجاشى حين هجا بنى العجلان بقوله :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة ... فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيلته لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل
وما سمى العجلان إلا لقولهم ... خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

---

(١) احددها أزجرها وامنعها . الفند بالتحريك : الظلم .. يشبه النعمان بسيدنا سليمان العظيم إذ لم يكن لأحد من المخلوقين مثل ملكه

ولقد كان الرسول ينشد قول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وكان لا يقيم بناءه ويقول هذا من كلام النبوة . وكان يقول : أصدق كلمة قالها لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

على أن النقد مع ذلك لم يخرج عن الإجمال الذى كان يلازمه إلا خروجاً قليلا ، وسواء تناول اللفظ أو المعنى أو الموضوع ، فلا يتناول ذلك إلا بفطرة لا تحب العمق ولا تعمد إلى الاستقصاء والتحليل .

النقد فى عصر بنى أمية :

هذا فى العصر الإسلامى الأول ، فإذا كان عصر معاوية قامت للشعر دولته واجتمعت له حريته ، ونصبت له موازين احتشد لها الذهن وأرهف فيها الذوق واستيقظت العصبية وتنبهت السليقة وكثرت الملاحظات والمراجعات ، فأصبح النقد أكثر دقة وأوفر عمقاً وأدنى إلى التحليل والتدوين . ولعل لما كان بين الشعراء من سباق وتنافس وبين القبائل من عصبية عارمة تتحرى مواطن الزلل ومكامن العيوب ، دخل فى استعار ناره واتقاد شراره . فقد كانت الخصومات مشبوبة الأوار دائبة الاشتعال بين الشعراء لا يفتر لهم عداء ولا يغفو لهم ثأر . هذا جرير يقف للفرزدق والأخطل يهجوهما وينهش أعراضهما وكان يقف لجرير بضعة وأربعون شاعراً يترصدون عيوبه ويتسقطون مزالقه .

ومن هنا اتجه النقد إلى الدقة والتحليل والاستقصاء ، فتناول أوزان الشعر ومعانيه وألفاظه : فقد امتدح ذو الرمة قصيدة للكميت بأنه أحسن فى ترقيص قوافيها .. وانتقد عبد الملك ابن قيس الرقيات لضعف قافيته حين أنشده .

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنى وقرعن مروتيه
وجببنى جب السنام ولم يتركن ريشا فى مناكبيه (١)

فقال له : أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيك

ودخل كثير عزة يوما على سكينة بنت الحسين ، فقالت له : أنت القائل :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها (٢)
بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها (٣)

أى زنجية منتنة تتبخر بالمندل الرطب إلا طاب ريحها . ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

واجتمع الكميت ببعض الشعراء فأنشدهم من شعره حتى إذا بلغ قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب (٤)

عقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصى قال خطأك : باعدت فى القول ، ما الأنس من الشنب ؟ — يريد أنه جمع بين أمرين لا سبيل إلى جمعهما —

واجتمع بعض الشعراء عند كثير عزة وفيهم عمر بن أبى ربيعة فأقبل كثير على عمر ينقد قوله :

قالت تصدى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد فى أثرى (٥)

---

(١) جب : قطع
(٢) الحزن : ماغلظ من الأرض . الجثجاث : نبات . العرار : بهار البر
(٣) الأردان جمع ردن كعنق وهو الكم . الموهن : من أول الليل إلى نحو نصفه . المندل : العود
(٤) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان
(٥) اسبطرت : أسرعت

وقال : إن الحرة أنما توصف بالحياء والامتناع وأنها مطلوبة لا طالبة

وإن من يستعرض كثيرا من الأمثلة التى حفلت بها بطون الكتب وانجلت عنها مجالس الأدب فى بيوت الخلفاء أو محافل الشعراء ، ليرى بجلاء أن النقد فى هذا العصر قد اتجه نحو الدقة والعمق والتفصيل كما أسلفنا وأنه أخذ يلتمس العلل ويعتمد على الأسباب الصريحة . ومن أمثلة ذلك التفصيل البارع مايروى من أن الكميت عارض بائية ذى الرمة التى مطلعها : مابال عينيك منها الماء ينسكب فقال :

هل أنت فى طلب الأيقاع منقلب أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللعب

وأنشدها ذا الرمة فقال له : ويحك إنك لتقول قولا ما يقتدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً عنه .

ومن أمثلة نقدهم ماوصف به ابن أبى ربيعة من أن لشعره موقعاً من القلب وعلوقا بالنفس وما قدموا به عمران بن حطان على الشعراء لأنه يقول وهو صادق فيفوقهم وهم يكذبون ، وقالوا إن جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . وكان جميل يقول فى عمر بن أبى ربيعة إنه يجيد مخاطبة النساء وإن أحداً لم يخاطبهن بمثل ماخاطبهن به عمر ، وجرير يعترف للأخطل بأنه أشعرهم فى وصف الخمر ومدح الملوك وهكذا .

على أن النقد إلى أوائل العصر العباسى لم يجاوز الشعر ، لأن الأدب عندهم لم يكن له إلا مظهر واحد هو فن الشعر يسكبون فيه خوالج نفوسهم ومكنون صدورهم ونبضات قلوبهم ، ويعبرون به عن نوازع الأفئدة وخطرات المشاعر . ولا بأس من أن نعرض هنا بعض الأمثلة التى تستبين منها مذاهبهم ، وتتضح فيها وجهتهم .

— ١ —

قدمت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته :

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القنـــاة سقاها

فقال لها : لا تقولى غلام ولـكن قولى همام

— ٢ —

أنشد كثير عزة قوله :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبـة بعيران نرعى فى خـلاء ونعزب

كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب [1]

إذا ما وردنا منهلا هاج أهله إلينا فلا ننفك نرمى ونضرب

فقالت له عزة : لقد أردت لى الشقاء الطويل :

— ٣ —

أنشد عبد الملك قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فوا حزناً من ذا يهيم بها بعدى

فقال بعض الحاضرين : أساء القول أيحزن لمن يهيم بها بعده؟ قال عبد الملك: لو كنت قائلا فماذا تقول قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أو كل بدعد من يهيم بها بعدى

فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولا ، ثم قال الوجه أن يقال :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

(١) العر : الجرب

— ٤ —

أنشد ذو الرمة بلال بن أبي بردة يمدحه :

رأيت الناس ينتجعون غيثا فقلت لصيدح : انتجعي بلالا(١)

فلما سمع بلال : فقلت لصيدح ، قال : ياغلام مر لها بقت و نوى.

ووقف أمام عبد الملك ينشده :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب (٢)

فقال عبد الملك : وما سؤالك عن هذايا ابن الفاعلة ؟ وكان بعبد الملك رمش(٣) فلا تزال عينه تدمع فتوهم أنه يعرض به .

— ٥ —

واستأذن جرير على سكينة بنت الحسين فلم تأذن له ، وخرجت جاريتها فقالت : تقول لك سيدتى : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال : نعم ، قالت : أفلا أخذت بيدها فرحبت بها وأدنيت مجلسها وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت عفيف . خذ هذين الألفين من الدراهم والحق بأهلك .

— ٦ —

وعابوا على النابغة اقتضابه فى قوله :

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب (٤)

---

(١) أى سمعت هذه العبارة : « الناس ينتجعون غيثا » .. وصيدح اسم الناقة

(٢) كلى جمع كلية أو كلوة بالضم وهى من المزادة رقعة مستديرة يحرز عليها تحت العروة .. مفرية مشقوقة سرب الماء كفرح : سال فهو سرب أى سائل

(٣) الرمش : تفتل فى شعر الاهداب وحمرة فى الجفون مع ماء يسيل

(٤) تقاعس : طال

على لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب (١)

لأنه انتقل فجأة من وصف الليل إلى ذكر الممدوح من غير تخلص .

— ٧ —

عيب على طرفة قوله :

أسد غيل فاذا ما شربوا وهبوا كل أمون وطمر

فقيل : إنما يهبون عند الآفة التى تدخل على عقولهم ، وفضلوا قول عنترة :

وإذا شربت فانني مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

إذ يخبر أن جوده باق لأنه لا يبلغ من الشراب ما يثلم عرضه . وقالوا إن حساناً تبع طرفة وهو أعيب منه فى قوله :

نوليها الملامة أن ألمنا إذا ما كان مغث أو لحاء

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

فقول طرفة خير من هذا لأنه قال :

أسد غيل فإذا ما شربوا

فجعل لهم الشجاعة قبل الشرب ، وحسان قال : نشرب فنشجع ونهب كأنا ملوك إذا شربنا ، فلهذا كان قول طرفة أجود وقول عنترة أحسن لأنه احترس من عيب الإعطاء على السكر وذكر أن السكر زائد فى سخائه فقال : وإذا شربت فانني مستهلك .

وقال زهير :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

---

(١) أى ليس فيها ما يكدرها من من ونحوه

فهذا من أحسن الكلام ، يريد أنه لا يشرب بماله الخمر ، ولكنه يبذله للحمد .

— ٨ —

وعابوا على الشماخ بن ضرار قوله :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقالوا : كان ينبغى أن ينظر لها مع استغنائه عنها ، فقد قال رسول الله للأنصارية المأسورة بمكة ، وقد نجت على ناقة لها حين قالت يا رسول الله إنى نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها فقال لبئس ماجزيتها .

ولقد عيب على ذى الرمة متابعة الشماخ فى هذا إذ يقول :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين عينيك جائر

وفضلوا عليهما فى هذا المعنى قول عبدالله رواحة الأنصارى :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء(١)

فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولاأرجع إلى أهلى ورائى (٢)

وقال الفرزدق فى هذ المعنى :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى

متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى(٣)

وجاء أبونواس بعد ذلك فقال فى هذا المعنى وأبدع فيه .

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

---

(١) الحساء جمع حسى وهو موضع رمل تجتمع صلابة . فاذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ومنعت الأرض السماء أن تنشفه . فاذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء

(٢) لاأرجع مجزوم لأنه دعاء فلاهى الجازمة له ومعناه اللهم لاأرجع (ص٦٨ المرشح)

(٣) الانساع جمع نسع بالكسر وهو سير يضفر عريضاً على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال والقطعة نسعة . والدبرة بكسر الدال وفتح الباء قرحة الدابة والجمع دبر بفتح الدال والباء وأدبار

— ٩ —

أخذوا على الفرزدق قوله :

إذا التقت الأبطال أبصرت وجهه مضيئاً وأعناق الكماة خضوع

فقالوا أساء القسمة وأخطأ الترتيب ، وإنما كان الأجدر أن يقول . أبصرته ساميا وأعناق الكماة خضوع ... وعابوا على الأخطل قوله فى عبد الملك :

وقد جعل الله الخلافة فيهم لأبيض لاعارى الخوان ولاجدب (١)

فقالوا : لو مدح به حرسياً لعبد الملك لقصر به :

— ١٠ —

وعابوا على الأحوص قوله لعبد الملك بن مروان :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول مالا يفعل (٢)

فقالوا : إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة وإنما تمدح بالأغراق والتفضل بما لا يتسع غيرهم لبذله .

— ١١ —

ووفد عمر بن أبى ربيعة على عبد الملك فقال له أنت القائل :

أأترك ليلى ليس بينى وبينها سوى ليلة إنى إذاً لصبور

قال : نعم قال فبئس المحب أنت تركتها وبينك وبينها غدوة .

ولما أنشد عبد الملك قول كثير فى أخذه الخلافة :

فما تركوها غدوة عن مودة ولكن بحد المشرفى استقالها

أعجب به أشد العجب ، وكان الأخطل حاضراً فقال ما قلت والله يا أمير المؤمنين أحسن منه ، قال : وما قلت ؟ فأنشد :

---

(١) الخوان ، مايؤكل عليه الطعام

(٢) مذق الحديث : مخلوط الحديث من مذق كنصر إذا خلطه

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملك لاطريف ولا غصب

ثم قال جعلتها لك حقاً وجعلك قد أخذتها غصباً قال صدقت إقراراً منه بصواب ما ذهب إليه .

— ١٣ —

ويروى أن الأخطل حين أنشده قوله :

فاذا تعاورت الأكف زجاجها نفحت فشم رياحهـــا المزكوم

أعجب به وقال للشعبي وكان حاضراً سمعت بمثل هذا ياشعبي؟ فقال الشعبي: أشعر منه والله أعشى قيس حيث يقول :

من اللائى حملن على المطايا كريح المسك تستل الزكاما

فقال صدقت :

ويروى المرزبانى[1] أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نصيب وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص ، فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر . ثم تراضوا بسكينة بنت الحسين فأتوها فأخبروها . فقالت لصاحب جرير أليس صاحبك الذى يقول ؟ !

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب كثير : أليس صاحبك الذى يقول ؟ !

يقر بعيـــنى ما يقر بعينها وأحسن شىء ما به العين قرت

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العصم زلت

صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

خليلى هـذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

(١) الموشح ص ١٥٩

فليس شيء أحب اليهن ولا أقر لأعينهن من النكاح أفيحب صاحبك أن ينكح قبحه الله وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فإن وجدت نعل بأرض مضلة من الأرض يوما فاعلمى أنها نعلى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ماأرى لصاحبك هوى .. إنما يطلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره.

ثم قالت لصاحب نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعه ماحييت فان أمت فواحزنى من ذا يهيم بها بعدى

كأنه يتمنى لها من يعشقها بعده ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال:

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لصاحب الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول ؟

من عاشقين تواصلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم عيشة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبح الله صاحبك وقبح شعره . ألا قال : تعانقا .

— ١٣ —

وبروى المرزبانى [1] كذلك أن ذا الرمة أنشد بلال بن أبى بردة:

رأيت الناس يتجعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعى بلالا [2]

فقال ياغلام اعلفها قتاً ونوى . يريد بذلك قلة فطنة ذى الرمة للمدح .

---

(١) الموشح ص ١٧٨ (٢) صيدح : اسم ناقته . قال المبرد قوله ، سمعت الناس يتجعون غيثاً .كناية، والمعنى سمعت هذا اللفظ أى قائلا ينطق بها .

النقد فى العصر العباسى :

جاء العصر العباسى وقد تطورت العقول ، وتهذبت المدارك ، وانتظمت المعارف ، وتنوعت الثقافة وتهيأت للعرب عقلية ناضجة مميزة تناصر على خلقها وتكوينها معارف الفرس والروم . فكان لذلك أبلغ الأثر فيما نظم الشعراء من شعر وما قال الناثرون من نثر وما أنتج الجميع من ألوان الأدب وصوره ، كما كان له أثر واضح فى روح النقد وتطوره واتجاهه إلى العمق والدقة والإحاطة.

أخذوا ينقدون نقداً مفصلا متصلا بكل ناحية ، نقدوا ضبط الشعر وبنية الكلمات وإعرابها ، ونقدوا القوافى والأعاريض ، ونقدوا معانى الشعر وأخيلة الشعراء .

وظهر نوع من النقد هو أدق مأخذاً وأعمق منزعا وأدعى إلى الوعى واليقظة والإحاطة . ذلك نقد الشعر من حيث اتصاله بقائله وارتباطه بالشاعر الذى نسب إليه ، ومعرفة صحيحه من منحوله . فذلك لا يستطيعه إلا من أوتى قوة الإدراك وشدة اليقظة والمعرفة الصادقة بطرائق الشعراء ومناحيهم . وألم بكثير من أحوال بيئاتهم .. فقد سلط على الشعر من حماد الراوية ومحمد ابن إسحاق وأمثالها ما أفسده وشكك فى صحته . قال محمد بن سلام : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد فى الأشعار ، كما أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال : قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة فقال : ما أطرفنى شيئاً ، فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مدحا لأبى موسى الأشعرى ، فقال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى للحطيئة ، ولكن دعها تذهب فى الناس »

ومن هنا تجرد أناس للتمييز والتفرقة بين الصحيح والمنحول ، وإن كان بعضهم ممن زادوا ووضعوا ، وكان من أشهرهم خلف الأحمر . حتى كانوا يقولون إنه أفرس الناس ببيت شعر ، ولقد سأله خلاد بن يزيد الباهلي : بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ فقال له . هل تعلم أنت منها ما هو مصنوع لا خير فيه ؟ قال نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال نعم ، قال: فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك مالا تعرفه أنت.

وقال قائل لخلف : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما تقول فيه أنت وأصحابك : فقال له : إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟

ولا ريب أن معرفة الصحيح من الموضوع والصادق من الكاذب تحتاج إلى دقة فهم ، وبعد نظر ، وإحاطة تامة بخصائص الشاعر ولون شعره وطريقة نظمه. وهذا لون جديد من ألوان النقد والدرس لم يكن موجوداً من قبل .

وظهر في هذا العصر لون جديد من ألوان النقد للشعر واستهجان طرائق الأقدمين والزراية بأساليبهم في الكلام وتصويرهم غير ما يحسون وما يجدون ، وكان شيخ هذا المذهب وإمام ذلك النقد ، الشاعر الموهوب أبو نواس . فقد عاب على الشعراء ابتداء قصائدهم بذكر الديار ومساءلة الأطلال والوقوف على الربوع الدوارس ، والدمن الطوامس . وظل يجهر بهذا النقد في قوة وإصرار ويقول :

قل لمن يبكي على رسم درس ... واقفاً ما ضر لو كان جلس

تصف الربع ومن كان به ... مثل سلمى ولبيني وخنس

اترك الربع وسلمى جانباً ... واصطبح كرخية مثل القبس

ويقول :

صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

لا تعرج بدارس الأطلال واسقنيها رقيقة السربال

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

كما وجد فى هذا العصر رواة علماء يلمزون المحدثين ويعيبون أشعارهم لا لعيب سوى حداثتهم ويفضلون عليهم المتقدمين لا لمزية سوى قدمهم . وهؤلاء الذين يقول فيهم الجرجانى صاحب الوساطة (١) : إنهم يعمون بالنقص كل محدث ولا يرون الشعر إلا القديم الجاهلى وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطريقة. ويزعم أن ساقة الشعراء رؤبة وابن هرمة وابن ميادة ، فإذا انتهى إلى من بعدهم كبشار وأبى نواس وطبقتهم سمى شعرهم ملحا وظرفا ، واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان النادرة وأجراه مجرى الفكاهة — ثم يقول : وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين ؛ إن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله ورأى تلك الغضاضة أهون محملا وأقل مرزأة من تسليم فضيلته والاقرار بالإحسان لمولد. حكى عن إسحاق بن ابراهيم الموصلى أنه قال : أنشدت الأصمعى

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبل الصدى ويشفى الغليل

إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال هذا والله الديباج الخسروانى . لمن تنشدنى ؟ فقلت : إنهما لليلتهما . فقال: لاجرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر .

وظهر من ذلك لون آخر من ألوان النقد ونحو جديد من أنحاء الدرس . ذلك نقد الشعراء لا فى بيت أو أبيات بل فى مجموع أشعارهم وجملة أوصافهم واستعراض مذاهبهم وتلقف تاريخهم وأثره فى خصائص أدبهم والالمام بعزالقهم

(١) ص ٤٩

و روائعهم ووضعهم فى طبقات على حسب قيمهم ومنازلهم . وأهم ما ألف فى ذلا
كتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ وكتاب طبقات الشعر
لحمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، وهو من أهم ما كتب فى النقد عـ
لعرب تكلم فيه على القواعد التى اتخذها النقاد إمامهم فى البحث والنق
حوى كثيراً من آراء النقاد والمفكرين والأدباء واللغويين . وكانت هـ
لآراء مثابة لمن كتب بعده فى نقد الأدب أو سير الشعراء كالآمدى والجرجا
أبى الفرج ، وكذلك كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ

وظهرت الكتب التى استجاد أصحابها قصائد ذات طابع خاص وأشما
تحمل روحا عاماً كالمفضليات والحماسة . وهكذا .

وفى القرن الرابع الهجرى ظهرت الكتب التى توازن وتنقد وتحلل وتستعرض
وتبرز خصائص الشاعر وقيمته الفنية أو تعلن مثالبه وتدل على ضعفه وتخلفه
ومن ذلك كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى ، وكتاب
الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ، وكتاب العمدة لابن رشيق ، وهكذ
من الكتب التى لا زلنا نعيش على حسابها ، ونحيا على هداها حتى اليوم .

الرواية والرواة

— ١ —

العرب أمة بدوية تعتمد معيشتهم على الترحل والأسفار ، وتقوم حياتهم على الانتقال من مكان إلى مكان إنتجاعا للرزق ، وسعياً وراء العيش ، لا تسكنهم دور ، ولا تأويهم قصور ، إنما يقيهم لفح الهاجرة ، أو يمنعهم من شدة البرد ، خيام يتخذونها من أصوافهم وأوبارهم . يحملونها على رواحلهم إذا ظعنوا ، ويرسون أوتادها ويقيمون عمادها إذا أقاموا . ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذى يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى معلم ، ولم تمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يمسكوا بالقلم أو يخطوا باليمين .

ولذلك اعتمدوا على الذاكرة يختزنون فيها ما عرفوا ، ويحتقبون بين ثنايا ها مايتردد بينهم من ألوان المعارف .

فى ذاكرة العربى مايعتز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومفاخر أيامها ومآثر وقائعها ، كأنه مسطور فى كتاب ومدون فى صحائف ، لايند عنه شىء ، لأن الحافظة الواعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الغريب العجيب عن رواية العرب وحفظهم مما يعده بعض الناس وهماً من الأوهام أو خيالا من الأخيلة . ولكنها القدرة البارعة التى لم تعتمد على الكتب ولم تعول على الكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربى كان يعرف سلسلة نسبه حتى ينتهى إلى نزار أو قحطان ، ويعرف كذلك أنساب القبائل فلا يغيب عنه شىء ولا يتسرب الخطأ إلى شىء مما روى . ووجد من العرب أناس تبحروا فى علم الأنساب كدغفل وأبى بكر الصديق . ولقد كان

حسان بن ثابت إذا أراد هجاء قريش ذهب إلى أبي بكر ليعلمه الأنساب، حتى يسل رسول الله صلوات الله عليه منهم كما تسل الشعرة من العجين

وكان للعرب عناية خاصة برواية الشعر، إذ هو سجل مفاخرهم، وديوان مآثرهم، ومجمع أحداثهم ووقائعهم، وعلمهم الذى لم يكن لهم علم أجل منه، وكان لكل شاعر راوية خاص يتتلمذ عليه ويروى عنه، ويحتج لقوله، ويظهر محاسنه ويذيع أشعاره، فامرؤ القيس كما يقولون راوية أبى داود الأيادى، وزهير راوية أوس بن حجر، والحطيئة راوية زهير وابنه كعب، والأعشى راوية المسيب ابن علس.

— ٢ —

ولما جاء الاسلام انتقل العرب من حياة إلى حياة ومن نظام إلى نظام. فوجد بعد الاضطراب استقرار، وبعد التنقل والارتحال سكن وإقامة، وبعد الأمية علم وكتابة، بيد أن الفتوح وما صحبها من جهاد وكفاح، والغزوات وما تستتبعه من جد وأدب، قد شغلتهم عن الشعر وصرفتهم عن روايته. فأصاب الرواية شىء من الفتور والاهمال.

— ٣ —

وفى عهد الدولة الأموية نشطت الرواية، وانتعش رجالها، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية تحدثنا عنها فيما سلف، وليستعينوا بما يروون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته، وإدراك سموه وعظمته، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربى والحرص على روايته إحياء لتاريخ حافل يعتزون بأحداثه، ويفاخرون بوقائعه، ويتمجدون بما يحدث عنه من مكرمات ومآثر. ومن هنا حرصوا أشد الحرص على الرواية، وتلقف أشعار القدماء،

ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الرحال ويكابدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة فى رواية غرائب الشعر تعدل القدرة فى إنشائه ، والحفاوة بالراوية فى قصور الخلفاء ومجالس الولاة لاتقل عن العناية بالشعراء المجودين ؛ والفحول المبرزين — وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفقت بضاعتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهوبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب ، وينقلون ماورثوه من هذا التراث المجيد . وكانوا متحرجين فى روايتهم ، متثبتين فى كل ما يصل إليهم ، فلا يأخذون إلا ممن صحت عربيتهم ، وبعدوا عن كل تأثير أجنبى ، كتميم وقيس ، وأسد وهذيل وبعض من كنانة وبعض من طى . أما القبائل التى جاورت قطراً أعجمياً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئا من لهجتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً .

قيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لخم وجذام لأنهما جاورا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ، ولا عن ثقيف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا عن قضاعة وغسان لحلولهم بالشام وهكذا .

ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أوتوا قوة الذاكرة ووفرة الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحواضر حاملين ما معهم من بضاعة مزجاة ، وتجارة رابحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل العطايا وسنى الهبات ما شجعهم على الرواية والانقطاع لها .

وإلى جانب رواة الشعر وحفظته وجد رواة الحديث إذ كان محفوظاً فى صدور الرجال ، مصوناً فى قلوب المسلمين ، غير مدون فى كتب . ووجد كذلك رواة ينقلون قراءات القرآن وما أثر عن الرسول صلوات الله عليه وعن صحابته فى تفسير بعض آياته . وكان لكل ناحية من هذه النواحى رواة ، وقد يختص

الرواية بناحية أو يجمع كل النواحى .. وظل رواة الشعراء كذلك يؤدون مهمتهم ويقومون بما كان يقوم به نظراؤهم من قبل . فكثير كان راوية جميل ، ومربع كان راوية جرير ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، وذو الرمة راوية الراعى .

أما الرواية العامة التى لقيت تقديراً ، ووجدت تشجيعاً من الخلفاء والولاة ، فهى رواية أشعار العرب سواء فى الجاهلية أو الإسلام . حتى كان الخليفة يستقدم الراوية إلى حضرته ، على بعد الديار وشط المزار ، ليسأله عن قائل بيت . ولقد سبقت من ذلك أمثلة فى ثنايا بحوث الكتاب .

— ٤ —

ولقد جرى على الرواية فى عصر بنى العباس مايجرى عليها فى زمن بنى أمية إذ ظل الرواة يرحلون إلى البادية ، وبقى الأعراب الحافظون ينتقلون من البادية إلى الحاضرة ليبيع ماعندهم من أشعار ، وعرض مايختزنون من آثار ، حتى فسدت لغتهم ، ولانت ألسنتهم ، وضعفت فصاحتهم ، فقلت الثقة بهم ، وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

الرواية والانتحال :

كانت الرواية أول الأمر هوية نفوس ألفتها ورغيبة قلوب أحبتها وسجية عند بعض الناس ، حملتهم على أن يحفظوا ويختزنوا ماراعهم من أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد .. ومن طبيعة المنبعث بشعوره ، المتجه بإحساسه ، الذى لا يسيره غرض ، ولا تطغى عليه منفعة ، أن يتحرى الصدق فيما ينقل ، ويتوخى الصحة فيما يجمع . ومن هنا حرص الرواة أول أمرهم على أن يبذلوا ماعندهم من غير أجر يبتغونه أو عطاء ينتظرونه .

فلما رأوا شدة الرغبة فيما عندهم، وقوة الحرص على بضاعتهم، وكثرة ما أغدق عليهم من العطايا والمنح، بدأوا يطمعون، وأخذوا يجعلون علمهم تجارة تدر عليهم المكسب وتجلب لهم الربح. وبعد أن كانت الرواية هواية نفس أصبحت رغيبة كسب، فقل فيها الاعتصام بالأمانة، والحرص على الصدق، والمبالغة فى تحرى الصواب. وبذلك وجد الرواة الذين أضافوا إلى الحق باطلا، وإلى الواقع خيالا وإلى الحادثة أحداثا. كل ذلك لأن همهم المكسب، ووكدهم أن يروج ما اخترعوه ويسير فى الناس ماوضعوه، فينالهم من وراء ذلك الأجر، ويصيبهم ماأملوا من كسب.

ولو بحثنا عن الدوافع والأسباب التى أدت إلى الوضع، ودعت إلى الاختلاق فى الرواية لرجعناها إلى مايأتى:

١ — كان الأعراب يتخذون الرواية وسيلة للكسب، وسببا لاجتلاب الرزق، فيفدون إلى الحواضر بما عندهم للحصول على المال، فإذا نفد مايحفظون عمدوا إلى الوضع والاختراع.

ومحمد بن سلام الجمحى يحدثنا أن ابن داود بن مقسم بن نويرة قدم البصرة فى بعض مايقدم له البدوى من الميرة. فأتاه أبو عبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه، وقاما له بحاجته وكفياه مؤونته، فلما نفد شعر أبيه مقسم جعل يزيد فى الأشعار ويضعها، فإذا كلام دون كلام مقسم، وإذا هو يحتذى على كلامه، فيذكر المواضع التى ذكرها مقسم والوقائع التى شهدها. فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله.

والأصمعى يقول عن أعرابى اسمه أبو ضمضم إنه أنشد لمائة شاعر كلهم يسمى عمرو. ويقول الأصمعى: فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين.

٢ — حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ

برواية ما تطرب له نفوسهم ، وتفتح له أسماعهم ، من مدائح يزعمون أن آباءهم مدحوا بها فى القدم ليرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى فقال: ما أطرفتنى شيئا . فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مدحا لأبى موسى الأشعرى. فقال : ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى للحطيئة ولكن دعها تذهب فى الناس

وصاحب الأغانى يروى أن حمادا تقرب إلى خالد بن عبد الله القسرى باختراع أبيات نسبها إلى قيس ابن الحدادية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم فأكرمهم وأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء — قال على لسان قيس :

وقد حللنا بقسرى أخى ثقة ... كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا

لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً ... يوما ولا يرتقون الدهر ما فتقا

كم من ثناء عظيم قد تداركه ... وقد تفاقم فيه الأمر وانخرقا

يقول أبو عمرو الشيبانى : إن حمادا أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله . والتواريخ فيها بين جداً .

٣ — فسق بعض الرواة وفساد مروءتهم ورغبتهم فى الكذب والوضع والاختلاق ، لشهوة تحسبها أنفسهم ، وشفاء لداء يتغلغل فى صدورهم ، ورغبة فى إظهار السبق والتفوق ؛ وقد كان على رأس هؤلاء الكذابين الوضاعين حماد وخلف الأحمر — أما حماد فيقول عنه المفضل الضبى : « لقد سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً » فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك . فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب . ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم . فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره

ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ »

ولقد أقر حماد بحضرة الخليفة المهدى وهو ولى للعهد بما زاده من عنده فى شعر زهير بن أبى سلمى ، حتى أمر حاجبه فأعلن فى الناس أن يبطل رواية حماد

وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام : أفرس الناس ببيت شعر . ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسك فى آخر حياته فأنبأهم بما وضع فلم يصدقه أحد . واعترف هو للأصمعى بأنه وضع أشعاراً . وقيل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على تأبط شراً رويت فى الحماسة .

٤ — وهناك سبب آخر للوضع والاختلاق ، لم تدفع إليه رغبة ، ولم تهيئه إرادة أو اكتساب . فإن بعض الحفاظ من الرواة حين يتزاحم لديهم ما حفظوا قد يختلط عليهم بعض المتشابه ، ويلتبس لديهم المتقارب فى المعنى أو فى الوزن أو المتفق فى الروى . فقد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى ، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا ، حتى لقد نسبوا الأبيات الآتية إلى ابن الدمينة وإلى نحو أربعين شاعراً وهى :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى والهم بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا ... لى الليل شاقتنى إليك المضاجع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة ... كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

أشهر الرواة :

هذا ولقد كثر الرواة كثرة عظيمة ، ومن بينهم حماد الراوية المتوفى عام ١٥١ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى عام ١٧٥ هـ وأبو عمرو الشيبانى ، وأبو عمر بن العلاء م ١٥٤ هـ ، والأصمعى م ٢١٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى م ٢٠٩ هـ

الغنـــاء العربى
وأشهر المغنين

— ١ —

يحس الإنسان فى أعماقه طرباً ونشوة ، ويشعر فى أطوائه بسرور ولذة ، وتتملكه أريحية وهزة حين يطرق سمعه نغم جميل ، أو يكاد يستأذن على قلبه صوت ندى ، أو يثير مشاعره توقيع مهـــذب ساحر فطرة فطر الله عليها الإنسان ، وجبلة أودعها فيـه . ومن هنا ترى المرء حين تنساب إلى سمعه ، وتسيطر على حواسه الأنغام الحالمة تهز أريحيته ، وتثير نشوته ، وتحرك كامن شجوه ، وتوقظ غافى زهوه ، وتدفعه إلى المجد ، وتبعثه نحو المـكارم والسؤدد ، وتجعله يخوض الغمرات ، ويقتحم المصاعب .

ولعل الإنسان لأول ما استخفه الطرب ، واستباه الحسن ، اندفع يشدو ، وانطلق ينغم ويرجع فى صوته ، متخذاً من أنغام الـكون المحيطة به ، وترجيع الطبيعة الصاخبة من حوله ، مصدراً لنغماته ، وترجيعاً لآهاته . فـكان من ذلك ما جرى على لسانه من شعر ، وما تردد فى منطقه من وزن ، تنساب فيه عاطفته ، وتموج أشجانه .

والعربى فى جزيرته الواسعة المترامية الأطراف المنبسطة الرقعة ، كان أكثر حاجة إلى الغناء ، يسرى به عن نفسه ويذهب الوحشة عن فؤاده ، حين يضرب فى البيداء بناقته ويقطع الفيافى والصحارى براحلته ، فيستحثها على المسير ويحفز من نشاطها فى الرحلة . ومن هنا نشأت أشعارهم وتولدت أوزانهم ثم اطرد نموها واتسعت بحورها وتطورت رسالتها فى الحياة .

لقد كان العربى فى الجاهلية يحدو إبله وينفث شجوه فى صبحه ومسائه ، وصيفه وشتائه، تدعوه رهبة الصحراء ، وسعة البيداء ، وانفساح الآفاق ، إلى أن يردد ما يجرى على لسانه وينغم ما يتفجر من يبانه ، فلا يقهر لنفسه رغبة ، ولا يدخر عنده متعة . وأى قوة تسكت الهزار حين يصدح ، وترهب الطائر الغرد حين يزقزق ويمرح .

كذلك كان العربى فى جاهليته يملأ آفاق الجزيرة غناء وشدوا . ولعل من العبث العابث أن نحاول البحث عن أول من غنى،وأن نذهب مع الذاهبين إلى أن أول من غنى فى العرب قينتان لمعاوية [1] بن بكر يقال لهما الجرادتان ، ومن غنائهما :

ألا ياقيل ويحك قم فهينم لعل الله يصبحنا غماما

فالغناء جزء من حياة العربى ، بل وشطر لذته ، ومدعاة نشوته ، ومبعث سعادته ، وإن كان لم يعرف فى الجاهلية إلا ماتدفعه إليه الفطرة ، وتبعثه عليه الطبيعة حتى ليقال إنه لم يعرف إذ ذاك إلا النصب والسناد والهزج. فالنصب غناء الركبان والقينات وهو الذى يستعمل فى المراثى، والسناد هو الغناء الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات،وهو الذى كان يغنى به فى غير الحداء ، والهزج هو الخفيف النغمات الذى يرقص عليه الأعراب ويصحب بالدف والمزمار فيطربهم ويستخف حلماءهم وذوى الوقار فيهم .

كذلك لم يكن يعرف العربى من أدوات الطرب إلا الدف والمزمار . وكانت منتشرة فى المدن كيثرب ومكة والطائف وصنعاء ومأرب وغيرها من

---

(١) يقول ابن عبد ربه : إنهما لعاد (جـ ٣ ص ٢٨)

بلاد العرب . . أما فى البادية فلم يكن غناء البدو إلا ترنما بالشعر مفردا وحداء للابل لا تصحبه أداة .

— ٢ —

ولما جاء الإسلام حمل الناس على الجد الذى لا يتسرب إليه لهو ولا عبث وشغلهم عن لذات النفس وشهواتها وملأ حياتهم بالدأب والعمل ، بعد أن كان يسيطر عليها الفراغ والدعة . فشغلوا بذلك وبالجهاد ونشر الدعوة عن الغناء والشعر ، وانصرفوا عن المفاكهة والمعابثة ، فلم يعد أحد يشغل نفسه بالغناء ذلك الشغل الذى يدعوه إلى الابتكار والتجديد ، فقلت الدواعى له وفترت الرغبة فيه . وإن كان قد بقى يؤدى بعض أغراضه فى حدود مباحة عند المسلمين ودائرة ضيقة عند المشركين الذين صرفوا كل همهم إلى مجاهدة الدعوة الجديدة ومحاربة أصحابها . . . لقد خرج صبية يثرب والنساء غداة وصول النبى صلوات الله عليه إليهم مهاجراً يستقبلونه ومعهم الدفوف وهم يغنون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ويروى كذلك أن جماعة من نساء قريش كن يضربن على الدفوف فى غزوة أحد . وكانت هند بنت عقبة تغنى أثناء هذا العزف بمقطوعات منها :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستحسن الغناء العف . وقال لعائشة يوما أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت : نعم قال : فبعثتم لها من يغني ؟ قالت : لا قال : أو ماعلمت أن الأنصار يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم معها من يقول ؟

أتينـــاكم أتيناكم فحيـونا نحييكم
ولولا الحبـــة السمرا ء لم نحـلل بواديكم

وقيل إن الرسول صلوات الله عليه مر بجارية فى ظل فارع وهى تغنى :

هـل على ويحـــكم إن لموت من حرج

فقال : لا حرج إن شاء الله.

وفى الصحيحين عن عائشة أنها قالت : لما قدم رسول الله المدينة وعك أبو بكر و بلال وكان بها وباء . فقلت يا أبت كيف تجدك ويا بلال كيف تجدك؟ فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويتغنى ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليـلة بواد وحولى إذخر وجليـــل
وهل أردن يوما مياه مجنـة وهل يبدون لى شـــامة وطفيل

قالت عائشة : فأخبرت رسول الله بذلك فقال . اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد .

كان هذا النزر اليسير فى صدر الإسلام استجابة للفطرة وتساوقا مع الطبيعة وإراحة للقلوب التى أضناها الجد وتخفيفا عن النفوس التى أرهقها الجهاد .

— ٣ —

أما فى عصر بنى أمية فقد انتعش الغناء واستحيا فنه وازدهرت روضته وأخصبت بيئته وكثر عشاقه ووجد من ألوان التشجيع و بواعث الغناء والقوة ما مكن له وهيأ أسباب الذيوع والانتشار

وكان الحجاز بيئته المخصبة ومربعه الرحيب، إذ احتجز الخلفاء فيه شباب الهاشميين، وأغدقوا عليهم وافر الأموال وأغرقوهم فى النعيم ،مما جعلهم يركنون

إلى الفراغ ويتطامنون إلى الدعة ويخبون فى اللهو . فأقبلوا على المتع، وأسرفوا فى الشهوات وعكفوا على السماع ، وتفننوا فيه، واقتنوا القينات يغنين بأصوات ناعمة تثير الطرب وتستولى على الحس وتمتلك المشاعر .

ثم انتقلت عدواهم إلى حواضر المملكة وعواصم الدولة . فاستمع الخلفاء والأمراء إلى الغناء وتنافسوا فى اقتناء المغنين والمغنيات وشارك بعضهم فى الغناء وجدد أصواتاً وغنى بها .

فقد كان عمر بن العزيز من أحسن الناس صوتاً وكان مولعا بالغناء فى شبابه وحين ولايته للمدينة، وقد وضع أصواتاً وغنى بها

ومما نسب إليه صنعته فى هذه الأبيات .

علق القلب سعادا عادت القلب فعادا

وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيهـــا وزادا

ولقد كان تشجيع الغناء وشدة الرغبة فيه وكثرة الإقبال عليه باعثا على على إجادته ، داعيا إلى التفنن فيه والابتكار فى ألحانه والتجديد فى طرائقه . ويقال إنه زيدت عليه ألحان فارسية أو رومية زادت فى جماله وروعة تأثيره .

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عبد الله بن الزبير أحضر عمالا من الفرس لتجديد الكعبة بعد ضربها بالمنجنيق أثناء خروجه على عبد الملك . فكانوا يغنون بالفارسية، فسمعهم سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم وهو مكى أسود، فالتقط النغم منهم ، وغنى به فى لفظ عربى وقيل إنه سمع الغناء من بعض بنائين أحضرهم معاوية من الشام لبناء دور فى مكة فأعجبه غناؤهم فاقتبس منه وغنى على شاكلته بالعربية ، ثم سافر إلى الشام وإلى فارس فأتقن فن الغناء وأخذ عنه من جاء بعده من المغنين فى مكة ، مثل ابن سريج والغريض وغيرهما، وعن الغريض أخذ معبد .

ومن أوائل ماصنع سعيد بن مسجح من أصوات هذه الأبيات من شعر الأحوص:

منى على عان أطلت عناءه ... قد يملك الحر الكريم فيسجح
أسلام إنك قد ملكت فأسجحى ... فى الغل عندك والعناة تسرح
إنى لأنصحكم وأعلم أنه ... سيان عندك من يغش وينصح
وإذا شكوت إلى سلامة حبها ... قالت أجد منك ذا أم تمزح؟

ويقال كذلك إن سائبا مولى عبد الله بن جعفر هو أول من غنى فى العربية الغناء الثقيل وكان بالمدينة وقد نقله عن الفارسية من مغن فارسى اسمه نشيط وعنه أخذ معبد وجميلة وعزة الميلاء .

وكانت المدينة تنافس مكة تنافساً شديداً فى كثرة المغنين والمغنيات وطرائق الغناء ، حتى ابتكر المدنيون طريقة تخالف طريقة المكيين .

ولقد كثر المغنون فى الحجاز كثرة عظيمة حتى كانوا يخرجون إلى الحج قوافل .

أما الخلفاء فقد بذلوا من ألوان التشجيع وبواعث الرغبة فى الغناء ماجعله يذيع وينتشر، ويحتل مكانا ممتازاً فى نفوس الناس .

يروى ابن عبد ربه أن (١) معاوية كان يعيب على عبد الله بن جعفر سماع الغناء ثم أقبل معاوية حاجا فنزل بالمدينة ، ومر ليلة بدار عبد الله بن جعفر فسمع عنده غناء على أوتار فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول: أستغفر الله أستغفر الله ،فلما انصرف من آخر الليل مر بداره أيضاً فإذا عبد الله قائم يصلى فوقف ليستمع قراءته فقال : الحمد لله ثم نهض وهو يقول : « خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » ، فلما بلغ ذلك ابن جعفر صنع طعاما

(١) ج ٣ ص ١٩ العقد

ودعا إليه معاوية وأحضر أحد المغنين فلما وضع معاوية يده فى الطعام حرك المغنى أوتاره وغنى بشعر عدى بن زيد :

يالبينى أوقدى النـــارا إنـــ من تهوين قد حارا
رب نار بت أرمقها تقضم الهنـدى والغارا
ولهـــا ظبى يؤججها عاقد فى الخصر زنارا

فأعجب معـاوية غناؤه حتى قبض يده عن الطعام وجعـل يضرب برجله الأرض طربا . فقال له عبد الله بن جعفر ياأمير المؤمنين ؛ إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً . فقال : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان .

ويروى أنه سمع عبد الله بن جعفر يغنى فى أول الليل فطرب وقال . والله إنى لأسمع شيئاً تـكاد الجبال تخر له وما أظنه إلا من ناقين الجن ، ثم سمعه فى آخر الليل فقال : هؤلاء قومى ملوك بالنهار ورهبان بالليل .

وكان يزيد يسمع الغناء ويطرب له ويقتنى الجوارى المغنيات .

وكان هشام لايسمع إلا من مغن محتشم،أما أخوه سليمان فكان غيوراً على النساء حتى إنه سمع مغنيا فقال : والله ماأحسب أنى تسمع هذا إلا صبت وأمر به فخصى .وأما يزيد بن عبد الملك فـكان له شغف بالغناء وولع خاص به ولم يسمع بجارية حسنة الصوت إلا اشتراها مهما بلغ ثمنها وكان يقول : ماتقر عينى بما أوتيت من الخلافة حتى أشترى سلامة وحبابة . فلما اجتمعا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

وألفت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المســـافر

. وكذلك كان ابنه الوليد. كان يطرب للغناء ويشارك فيه ويقتنى المغنيات. وله فى هذه الصناعة حذق ومهارة .

ومما نسب إليه صنعته فى قوله هو :

وصفراء فى الكأس كالزعفران ... سباها التجيبى من عسقلان

تريك القذاة وعرض الإنا ... ء ستراً لها دون ستر البنان

ولا شك أن هذه العناية البالغة بالغناء والمغنين قد عادت على الشعر بالرواج والذيوع والتهذيب والصقل وأكسبته عذوبة اللفظ ورقة الأسلوب وروعة المعنى، إذ كان الشعراء يتنافسون فى تجويد الشعر حتى يتداوله المغنون .

يروى أن نصيبا والأحوص وكثيرا خرجوا إلى العقيق فانتهوا إلى مكان به رجال ونساء وكراسى مصفوفة فجلس كل واحد منهم على كرسى، ثم أقبلت جارية جميلة فقالت لها مولاتها : خذى من قول النصيب :

ألا هل من البين المفرق من بد ... وهل مثل أيامى بمنقطع السعد؟

تمنيت أيامى أوائك والمنى ... على عهد عاد ماتعيد وما تبدى

فغنته ثم قالت لها خذى فى قوله:

أرق المحب وعاده سهده ... لطوارق الهم التى ترده

وذكرت من رقت له كبدى ... وأبى فليس ترق لى كبده

لاقومه قومى ولا بلدى ... فنكون حينا جيرة بلده

قال نصيب: فوالله لقد زهوت زهوا حتى خيل إلى أنى من قريش وأن الخلافة لى، ووثب الأحوص وكثير وأسرعا بالخروج حسدا لنصيب وما ناله من شرف التغنى بشعره ... ومن أشهر المغنيين فى هذا العصر :

سعيد بن مسجح ، وابن سريج والغريض ومعبد وطويس وسائب خاثر وابن عائشة وابن محرز وجميلة وبرد الفؤاد ونؤوم الضحى وعزة الميلاء وسلامة القس وغيرهم .

— ٤ —

جاء العصر العباسى وصحبه من ألوان الترف ومظاهر الحضـــارة ولين العيش وجمال الحياة مالم يألفه العرب من قبل . فارتقى فن الغناء وتغلغت آثاره فى كل وسط وكل بيئـة ، حتى شغف به المحزون والفرح لأنه تمثيل لعواطف النفوس ومشاعرها وخوالج القلوب ونوازعها ، وبعد أن كانوا فى أيام بنى أمية لا يعلمونه إلا الجوارى الا ود والصغر اســتن البرامكة سنة تعليم الجوارى البيض الحسان ليضفى حسنهن على الغناء أثراً رائعاً وتهييجاً بارعاً . ومن هنا زادت قيمتهن حتى قيل إن الرشيد ابتاع جارية مغنية بمائة ألف دينار واشترى أخرى من ابراهيم الموصلى بسبعة وثلاثين ألفاً . واشترى محمد الأمين جارية من جعفر بن الهادى بأكثر من ألف ألف دينار

وقد عنى الخلفاء والأمراء وذوو اليسار عناية فائقة بالغناء والمغنين فكانت مجالس السمر حافلة بأندادهم صوتاً وأجملهم توقيعاً وأحسنهم وجهاً وأشرقهم سمتاً . وقد اتخذ الخلفاء من المغنين ندماء لا يفارقونهم إلا على موعـد . وكان المغنى يطلب من الخليفة أن يجيزه فى الأسبوع يوماً يفرغ فيـه لشأنه ويعكف على خاصة نفسه . وبلغ من علو منزلة المغنين أن قصدهم بعض الخلفاء فى منازلهم ، وهذا هرون الرشيد يقصد منزل ابراهيم الموصلى فى جنح الليل فيأكل من طعامه ويسمع منه ومن جواريه ، وكانوا يعقدون المجالس للمفاضلة بين المغنين والحكم عليهم حتى قيل :

إن الرشيد جمع يوماً بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كابراهيم الموصلى وإبنه اسحق والمتشيعين للجـديد كإسماعيل بن جامع . ثم أمر ابراهيم أن يغنى ففنى الصوت :

وقفت على ربع لميـة ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه

فكان كل من فى المجلس يجيبه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ثم أمر ابن جامع فغنى :

كأن أحور من غزلان ذى بقر أعارها عينيه والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أمل ولا توفى المواعيدا
كأننى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا

فاستخف الطرب الرشيد أيما استخفاف، ثم غنى اسحق :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طربا وقال : والله ما الغناء الذى يلين المريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طربا إلا غناء إسحق . ثم وزع على المغنين الجوائز من ألف دينار إلى خمسمائة .

ولقد أقبل بعض الخلفاء والأمراء على الغناء يتعلمه حتى أجاده الكثير منهم : كابراهيم بن المهدى وأبى عيسى بن الرشيد وعبد الله بن الهادى وعبد الله بن الأمين .

هذا وقد أدى تعلق الناس بالغناء وعكوفهم عليه أن جدد فيه إبراهيم ابن المهدى واخترع من الألحان ما لم يكن موجوداً ولما عيب عليه ذلك قال : أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ : وشايعه كثيرون ممن رضوا طريقته واستحسنوا مذهبه وخالفه من ألفوا القديم وعكفوا على اللحن المعروف

وأصبح الغناء فى هذا العصر يتنوع إلى جديد له أشياعه ومحبوه وقديم له نصراؤه والمتعصبون له .

فأنصار القديم : إبراهيم الموصلى وإسحق الموصلى ومخارق وعريب وبذل وسليم بن سلام وأحمد بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم .

وأنصار الجديد : إبراهيم بن المهدى وإسماعيل بن جامع ويحيى المكى ويعقوب بن المهدى وأخته علية وعبد الله بن الهادى وغيرهم .

وكان رقى الغناء باعثاً على رقى الشعر وتجويده حافزاً للشعراء على أن يقولوا فيجيدوا كما أشرنا إلى ذلك فى مواضعه .

* * *

نسأل الله أن ينفع بعلمنا ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، إنه أكرم مسؤول ، وأعظم مأمول !

المنهج الدراسى

للسنة الثانية بكلية اللغة العربية

---

١ — تاريخ الأدب فى عهد بنى أمية :

ا — سياسة الأمويين وأثرها فى الأدب ـ انتشار اللغة وقيامها بمقتضيات الملك والسياسة ـ طروء اللحن والعمل على مقاومته ـ عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب ـ النقد الأدبى والمناظرات الأدبية وأمثلة لها

ب — النثر : الخطابة وأشهر الخطباء ـ الكتابة وأشهر الكتاب

ح — الشعر : مميزاته وما طرأ عليه فى أغراضه ومعانيه وأخيلته وأساليبه طوائف الشعراء كالغزلين والهجائين والسياسيين

٢ — تاريخ الأدب فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين :

ا — امتزاج العرب بالعجم وآثاره فى الحياة الاجتماعية والأدبية ـ ترجمة العلوم والآداب الأجنبية وأطوارها ـ وأشهر القائمين بها ـ التأثير الأجنبى فى اللغة العربيه وآدابها ـ تولد العامية واختلافها باختلاف الأقاليم

ب — النثر ـ الخطابة وأشهر الخطباء ـ الكتابة وأشهر الكتاب ـ التوقيعات

ح — الشعر : عناية الخلفاء به ومنزلة الشعراء لديهم ـ مجالس الشعر والأدب ـ ماطرأ على الشعر فى أغراضه ومعانيه وألفاظه وأخيلته وأساليبه وأوزانه ـ حسنات المولدين ومساوئهم

د — النقد والموازنة وأمثلة لها ـ الرواية والرواة ـ الغناء وأشهر المغنين